ألكسندر سولجينيتسين

الحائز على جائزة نوبل للآداب

يوم في حياة إيفان

رواية

ترجمة:

د.هاشم حمادي

يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش

يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش

الكسندر سولجينيتسين

ترجمة: د. هاشم حمادي

الناشر: دار الرأي
الطبعة الأولى: 2006
ص.ب 9036 دمشق
تليفاكس: 011/6129757 - 095/485480
info@daralrai.com

الإخراج الفني: همام بهلول ــ جوال: 095/450775

توزيع

دار الحصاد – دمشق
تليفاكس 2126326

دار السوسن – دمشق
تليفاكس 6665696

يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش

الكسندر سولجينيتسين

الحائز على جائزة نوبل للآداب

ترجمة: د. هاشم حمادي

مقدمة

ولد الكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر/من عام ١٩١٨ في مدينة كيسلوفودسك، أحد المنتجعات المشهورة في الجنوب السوفيتي السابق، في أسرة كان ربها ضابطاً في الجيش الروسي، شارك في الحملة على بروسيا عام ١٩١٤، وتوفي في حادث مأساوي، قبل نصف عام من ولادة ابنه، أما والدته فكانت تنحدر من أسرة إقطاعية، ولم تلبث أن وجدت نفسها، بعد أن ترملت، تقع في محنة جديدة، إذ عمدت السلطات السوفيتية، بعد البدء بتطبيق سياسة التأميم، إلى ملاحقة كبار الإقطاعيين، بمن فيهم أسرتها.

وهكذا فقد انتقلت مع ولدها الكسندر في عام ١٩٢٤ إلى مدينة روستوف على نهر الدون. وهناك أمضى الكاتب طفولته وفتوته. فبعد التخرج من الثانوية، انتسب إلى كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة روستوف، وتخرج منها بنجاح باهر، في عام ١٩٤١، كما درس في الوقت نفسه، بالمراسلة في معهد موسكو للفلسفة والأدب والتاريخ، وأنهى دورات تعلم اللغة الإنكليزية.

في عام ١٩٤٢ تخرج سولجينتسين من كلية المدفعية، وعين قائد بطارية، ولقد خاض الكاتب غمـــار الحـــرب الوطنيـــة العظمى، ووصل حتى بروسيا الشرقية، حيث حـــصل علـــى وسامين، ورقي إلى رتبة نقيب.

وفي شباط (فبراير) من عام ١٩٤٥، والحـــرب لم تـــضع أوزارها بعد، ضبطت المخابرات العسكرية في رسائله إلى أحد أصدقائه، نقده اللاذع لستالين، وأدين، وحكم عليه بالسجن ثمانية أعوام.

ومذ ذاك بدأت مرحلة رهيبة في حياة الكاتـــب، ســـداها التنقل بين السجون والمعتقلات والمنـــافي، ولحمتـــها الإذلال ومحاولة تحطيم الإنسان معنوياً، واغتيال كل ما هو إنساني فيه. فلا غرابة أن تترك هذه المرحلة بصمات عميقة علـــى حيـــاة الكاتب وعلى نتاجه الأدبي اللاحق. حيث نجد أن جل كتاباته القصصية والروائية والملحمية مستقاة من معاناته.

ولقد صدف أن جاءت أعماله الهامة الأولى متزامنـــة مـــع حلول فترة الدفء في العهد الخروتشوفي، حين بـــدأ النظـــام الجديد إماطة اللثام عن جرائم النظام الستاليني، وحين أعطـــي هامش محدود لحرية الفكر. ولقد كان سولجينيتسين في طليعة الكتاب، الذين تصدوا لمهاجمة ممارســـات النظـــام القمعـــي، وتصوير فظائعها وأهوالها، وذلك في روايته الأولى "يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش"، التي كتبها عام ١٩٥٩، ونشرت في مجلة "العالم الجديد"، الواسعة الانتشار، في خريف ١٩٦٢، فأحدثت ضجة كبيرة، إن على الـــصعيد الـــسياسي، وإن في الميدان الأدبي، وحولت سولجينيتسين من كاتب نكرة، مغمور، تقبع مؤلفاته على شكل مخطوطـــات في الأدراج، أو مجـــرد

مشاريع مخطوطات في الذاكرة، إلى كاتب مشهور، يشار إليه بالبنان. وكان من البدهي، بعد النجاح الكبير، الذي لقيته روايته الأولى، أن تكر السبحة، وأن تتوالى إبداعاته، فانكب على التحضير لروايته المعروفة: "أرخبيل الغولاغ"، التي أرست الأساس لجنس أدبي جديد في الأدب السوفيتي، وهي الرواية الوثائقية، والتي أمضى زهاء عشر سنوات في كتابتها، وكانت فترة الدفء قد انتهت. وبحلول عهد بريجنيف، بدأ الكاتب يتعرض لحملة رسمية ضد كتاباته، فتم تضييق الخناق على نشرها، وتمت مصادرة المخطوطات، فكان أن هُربت إلى الخارج، حيث نشرت هذه الرواية، وروايته الأخرى "جناح السرطان"، وكذلك قصته الطويلة "الطبقة الأولى".

كل هذا زاد من شهرة الكاتب، إن في الغرب، وإن في الداخل السوفيتي، حيث كان القراء السوفيت يتلهفون، شوقاً للإطلاع على مؤلفاته. فكانت تباع في السوق "السوداء" بأسعار خيالية، وكانت تصنف بين المحظورات رقم واحد، حيث كان يتعرض مقتنوها للعقاب الصارم، ويسامون مختلف أشكال الملاحقة والاضطهاد.

في عام ١٩٧٠ نال سولجينيتسين جائزة نوبل للآداب، مما ضاعف من تضييق السلطات للخناق عليه، حيث أعتبر "عدواً للبلاد". وفي عام ١٩٧٤ زج به في السجن، وصدر القرار القاضي بسحب جنسيته، وطرده إلى الخارج.

أمضى الكاتب في الخارج عشرين عاماً، تنقل خلالها بين ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة. حيث تابع كتاباته، وصدرت له عدة قصص تاريخية، بالإضافة إلى روايته الملحمية "الطاحونة الحمراء".

في أيار من عام ١٩٩٤ عاد سولجينيتسين إلى روسيا، بعد أن رد إليه اعتباره. وقد انصرف الآن إلى الكتابات السياسية، البعيدة عن العقائد الحزبية الجامدة، اليسارية، أو اليمينية، ولا يزال الأمل يراوده في أن تسترد روسيا أصالتها، وتعود إلى جذورها، بعيداً عن الأوهام الإمبراطورية، والصرعات الغربية.

في روايته "يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش" يرسم الكاتب لوحة يوم واحد في حياة بطله، من الاستيقاظ المبكر، حتى الخلود للنوم. فجاءت هذه اللوحة غنية بالأحداث، والوقائع التي تتكرر على مدى عشر سنوات، أو على مدى ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين يوماً من حياة إيفان دينيسوفيتش في معسكر الاعتقال الستاليني.

إن أبطال هذه القصة حقيقيون، تم استقاؤهم من الواقع، بمن فيهم إيفان شوخوف، الذي خدم جندياً في بطارية المدفعية، تحت إمرة سولجينيتسين. وكذلك الكاتب نفسه، الذي ذاق مرارة حياة المعسكر وأهواله، مثله مثل المئات، بل الآلاف من ضحايا نظام القمع والاستبداد.

في بداية القصة يطالعنا طابور طويل من المعتقلين، الذين يحاولون الاحتماء بأية وسيلة من البرد القارس. إنهم يسيرون بخطوات متزنة، وقد دفنوا رؤوسهم بين أكتافهم، كأنهم في جنازة، تحيط بهم من جميع الجهات الأسوار العالية، والأضواء الكاشفة، وأبراج المراقبة الشاهقة. وعل جانبي الطابور يتوزع الحراس المسلحون، والكلاب الشرسة. والمعسكر عالم قائم بذاته، له قوانينه الصارمة وسلطته وأزلامها، وله أيضاً ضحاياه، وما أكثرهم. فهناك القادة الكبار، على غرار رئيس الانضباط "فولكافوي"، الذي يخافه الجميع ويتجنبونه، ولقد جاء اسماً

على مسمى، فاسمه مشتق من كلمة "فولك"، وتعني الـــذئب، وبالفعل فهو ينظر إليك نظرات الذئب، ويكشر عن أســـنانه، تكشيرة الذئب، وينقض سريعاً على ضحاياه، كمـــا حـــدث بالنسبة للرائد البحري، حين حاول الاحتجاج، فما كان من "فولكافوي" إلا أن سلخه عشرة أيام في الحبس الانفرادي.

وهناك المراقبون، أمثال التتري، ذي السحنة المقلوبة، والذي يفاجئك بظهوره، ويوزع العقوبـــات ذات الـــيمين، وذات الشمال. والمعتقلون أنفسهم على درجات، بعـــضهم يقـــدم الخدمات للمسؤولين في المعسكر، فيقربهم هؤلاء، ويبـــسطون عليهم حمايتهم، وبعضهم يعيش طفيلياً، لا يتورع عن التسلل إلى حيث الصحون غير المغسولة للعقها، والبحث في المباصـــق عن أعقاب السجائر، ومن هـــؤلاء "فيتيوكـــوف"، الجـــدير باللقب، الذي يطلق عليه - "ابن آوى".

وفي الجانب الآخر يوجد بين المعتقلين من ظل محافظاً على كرامته، ومتشبثاً بالبقية الباقية من إنسانيته، على الرغم مـــن الظروف الطاحنة، ومن هؤلاء العجوز يـــور ٨١، والعجـــوز الآخر هـــ ١٢٣، وكذلك "سينكا كليفشين" الأطرش، الذي ذاق مرارة الاعتقال في المعسكر النازي، لكنه لم يش برفاقه في المنظمة السرية، على الرغم من مختلف أشكال التعذيب، الـــتي مورست ضده، ولم يجد النظام الستاليني من طريقة يكافئه بها على بطولته إلا بجعله يتذوق "حلاوة" المعسكر السوفيتي.

ثم إن هناك "أليوشكا" المعمداني، الذي لا يكف عن تلاوة الإنجيل، والرائد البحري "بونيوفسكي"، الذي لا يتورع عـــن تلقي الضربات عند الضرورة، وكيلها عند اللزوم.

وهناك أيضا "تيورين"، رئيس المجموعة. كان في الماضي فلاحاً، وهو في المعسكر منذ تسعة عشر عاماً، بتهمة تحدره من أسرة كولاكية، أي من أصحاب الأملاك، لكنه لم يستسلم، وهو يعامل أفراد مجموعته كما يعامل الأب أبناءه، ويدافع عنهم، مخاطراً بمضاعفة محكوميته، ولذا فهم يحبونه، ويحترمونه، ويحاولون أن لا يورطوه.

أما "قيصر ماركوفيتش" فهو مخرج سينمائي سابق، بعيد جداً عن الحياة الواقعية، لا يجيد التعامل مع حياة المعسكر.

لكن الشخصية المحورية في الرواية، هي شخصية "إيفان شوخوف". وهو فلاح سابق، في الأربعين من عمره. وكان يخدم في الجيش، ويقاتل بتفان وإخلاص، إلى أن وقع في الأسر.

وقد تمكن من الهرب مع أربعة آخرين، فوصل سالماً إلى القوات الصديقة. لكن المحققين خيروه بين أمرين، أحلاهما مر: إما أن يعترف أنه عميل للمخابرات الألمانية، ويوقع على ذلك، وإما أن يعدم، ولقد وقع الاعتراف المطلوب، ومنذ ذلك الحين اعتبر خائناً للوطن، وحكموا عليه بالسجن في معسكر الاعتقال عشرة أعوام.

منذ ثمانية أعوام، وهو يتقلب في الجحيم الستاليني، حيث ذاق الأمرين، أولاً في أوست إيجما، ومن ثم في معسكر الأشغال الشاقة السيبيري هذا، لكنه تأقلم مع شريعة الغاب، السائدة هنا، وسعى جاهداً من أجل البقاء حياً، دون أن يفقد كرامته، لكنه كان يخشى أن تطول مدة محكوميته بصورة تعسفية إلى نهاية حياته.

يبدأ يوم إيفان دينيسوفيتش ومئات المعتقلين من أمثاله، بالنهوض قبل طلوع الفجر، ومن ثم يتناولون الطعام، الذي لا

يؤكل، ويساقون بعد الاجتماع الصباحي، تحت حراسة مشددة، إلى مشاريع البناء وحفر الأرض، ومد الأسلاك الشائكة، في ظروف الشتاء القارس، حيث تنخفض الحرارة إلى ما دون الثلاثين درجة مئوية تحت الصفر.

وبعد العمل المضني، في الصقيع، يُساقون كما القطيع إلى المعسكر، ويجبرون على الوقوف بذل أمام طاقة المطعم للحصول على وجبات، تكون في أكثر الأحيان مجرد ماء ملون.

فلا غرابة أن العديد من المعتقلين كانوا عاجزين عن تحمل مثل هذه الظروف الرهيبة. فيتحطم بعضهم، ويقضي البعض الآخر نحبه. فالحياة في معسكر الاعتقال تشوه العلاقات بين الناس، وتجعلهم يشعرون أنهم مجرد قطيع من الماشية، حتى أنهم يفقدون أسماءهم، حيث يحمل كل منهم رقماً خاصاً به، ملصقاً على سترته، وطاقيته، فينادى بهذا الرقم.

تعيد هذه الرواية إلى أذهاننا رواية "كوخ العم توم" للكاتبة هارييت بيتشر ستاو، من حيث التشابه، إن لم نقل التطابق بين تراجيديا المعتقلين في المعسكرات الستالينية، وبين تراجيديا العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية. فهؤلاء وأولئك مغلوبون على أمرهم، يتذوقون مرارة الظلم والطغيان، دون أن يجرؤوا على الاحتجاج، وإن سولت لأحدهم نفسه ذلك، أنزل به العقاب الوحشي. وهؤلاء وأولئك زج بهم في هذا الجحيم القاسي، لا لذنب اقترفوه، ولا لجريمة ارتكبوها، بل لأن العبيد ولدوا سود البشرة، أو من أم قنَّة، ولأن المعتقلين ولدوا في عائلات إقطاعية، بورجوازية، أو لأنهم وقعوا في الأسر الألماني، وبالتالي فهم يصنفون في خانة الخونة، أعداء الوطن، ثم إن

سياسة معسكرات الاعتقال الستالينية، وسياسة التمييز العنصري الأمريكية، تشكل وصمة خزي وعار في تاريخ الدولتين.

المترجم

يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش

في الخامسة صباحاً ترددت، كما هي العادة، إشارة الاستيقاظ، القرع بالمطرقة على قضيب سكة الحديد، قرب عنبر القيادة.

مرَّ الرنين المتقطع ببطء، عبر الزجاج المتجمد بسماكة إصبعين، ثم خفت بسرعة، فقد كان الطقس بارداً، و لم يكن المراقب راغباً في هز يده طويلاً.

خفت الرنين، لكن الظلمة الحالكة لا تزال تخيم في الخارج، كما كانت ليلاً، حينما نهض شوخوف لقضاء حاجته في البرميل، المخصص لذلك. و لم يكن يمزق سجف العتمة الداكنة سوى ثلاثة مصابيح صفراء- اثنان من المنطقة، وواحد من داخل المعسكر.

لكن أحداً لم يأت لفتح العنبر، و لم يتناه إلى السمع قيام المناوبين بحمل برميل النفايات على عصوين لإخراجه.

لم يسبق لشوخوف أن تأخر في النوم، كان دائماً ينهض مع إشارة الاستيقاظ، وإلى أن يحين بدء يوم العمل كان لا يزال حوالي ساعة ونصف من الوقت الحر، غير الرسمي. ومن يعرف حياة المعسكر يستطيع باستمرار أن يكسب شيئاً: كأن يخيط لأحدهم غطاء القفازات، من البطانة العتيقة، وأن يقدم لرئيس المجموعة جزمة اللباد الجافة، فيضعها عند السرير مباشرةً، كي لا يضطر ذاك إلى اللف والدوران، وهو حاف حول الكومة،

وكي لا يضطر إلى الانتقاء، أو أن يطوف على قسم الأمانات، عَلَّ أحدهم يحتاج إلى خدمة: كأن تكنس له، أو تحضر له شيئاً، أو أن تذهب إلى المطعم لجمع الصحون عن الطاولات، وحملها أكواماً إلى المغسلة- وهناك سيطعمونك أيضاً، لكن الراغبين في ذلك كثر، سيل لا ينقطع، والأهم من ذلك- إذا كان قد بقي شيء في الصحن، فلا تستطيع أن تتمالك نفسك، فتبدأ لعق الصحن. لكن شوخوف يتذكر جيداً كلمات كوزمين، أول رئيس لمجموعته، وهو ذئب معسكر عتيق، كان حتى عام تسعمائة وثلاثة وأربعين قد أمضى اثني عشر عاماً في المعسكر، وفي ذات مرة قال للدفعة الجديدة، التي جيء بها من الجبهة، بعد أن جمعها حول النار المتوهجة، في ممر غابي مكشوف:

- هنا يا شباب تسود شريعة الغاب. لكن الناس يعيشون، حتى هنا. إن من يفطس في المعسكر هم من يلعقون الصحون، من يعلقون الآمال على النقطة الطبية، ومن يطرقون أبواب المسؤولين.

إنه يبالغ بالطبع فيما يتعلق بالمسؤولين، فهؤلاء يصونون أنفسهم، لكن صيانتهم إنما تأتي على حساب مص دم الآخرين.

كان شوخوف ينهض مع النفير دائماً، لكنه اليوم لم ينهض. فمنذ البارحة يشعر أنه ليس على ما يرام.

إنه إما محموم، وإما أن كل جسمه يتوجع. ولم يشعر بالدفء في الليل، فبين اليقظة والنوم كان يرى تارةً أنه مريض تماماً، وطوراً أن حالته تحسنت قليلاً. ولم يكن يرغب في قدوم الصباح.

لكن الصباح جاء في ميعاده.

ثم من أين له أن يشعر بالدفء- فالنافذة مغطاة بالجليد، وعلى الجدران، عند تماسها مع السقف، على طول العنبر كله، وهو عنبر ضخم، يمتد الندى الثلجي كخيط عنكبوتي أبيض.

لم ينهض شوخوف. ظل راقداً فوق سريره، وقد طمر رأسه باللحاف والمعطف، وأدخل كلتا رجليه في كم السترة المقلوب. لم يكن يرى شيئاً، لكنه كان يدرك من خلال الأصوات، ما الذي يجري في العنبر، وفي ركن مجموعته. فهاهم أولاء المناوبون يحملون واحداً من برميلي القاذورات، الذي يتسع لثمانية دلاء، فتتردد خطواتهم الثقيلة في الممر، إن ذلك يعتبر عملاً سهلاً، خاصاً بالعجزة، لكن جرب أن تحمله، دون أن ينسكب منه شيء. ها هي حزمة من جزمات اللباد تسقط من مكان التجفيف، على الأرض، في المجموعة الخامسة والسبعين. ثم ها هي ذي أخرى تقع في مجموعتنا (كان اليوم دورنا أيضاً في تجفيف الجزم اللبادية). يرتدي رئيس المجموعة ومعاونه جزمتيهما بصمت، بينما يبدأ سريراهما بالصرير. الآن سيذهب الرئيس إلى عنبر القيادة، لمقابلة المسؤولين عن توزيع المهام. ليس كما يذهب لمقابلتهم كل يوم- تذكر شوخوف أن مصيرهم سيتقرر اليوم، هناك نية في سحب مجموعتهم، المئة وأربعة، من بناء الورشات إلى مشروع جديد- "الضاحية الاشتراكية". والضاحية الاشتراكية هذه عبارة عن أرض جرداء، مطمورة بأكوام الثلج، ولابد قبل القيام بأي شيء هناك من حفر الأرض، ونصب الأعمدة، ومن ثم مد الأسلاك الشائكة، منعاً للهرب. وبعد ذلك يبدأ البناء.

من المؤكد أنهم لن يجدوا هناك أي مكان يتدفأون فيه، فليس ثمة من حص واحد، وليس بمقدورك أن تشعل النار، إذ بماذا تغذيها؟ لا منجاة لك إلا في العمل بوجدان.

إن رئيس المجموعة مهموم، وهو ذاهب لتسوية الموضوع. والتوسط من أجل

إرسال مجموعة أخرى بدلاً من مجموعته. بالطبع سوف تعود بخفي حنين، إن ذهبت فارغ اليدين، لابد أن تحمل لكبير المسؤولين عن توزيع المهام نصف كيلو من الشحم، لا بل وربما كيلوغراماً.

لا ضير من التجربة، ماذا لو يحاول الذهاب إلى النقطة الطبية، فيرتاح من العمل يوماً؟ إن كل جسمه يتوجع.

لكن من هو المراقب المناوب اليوم؟.

وتذكر أن المناوب هو، إيفان ونصف، وهو رقيب طويل، ونحيل أسود العينين.

حين رأوه للمرة الأولى، دب الخوف في نفوسهم، لكن ما إن عرفوه، حتى اكتشفوا أنه الألطف بين المناوبين، فهو لا يزج بك في الانفرادي، ولا يجرجرك إلى رئيس الانضباط. هذا يعني أن بالإمكان أن يرقد قليلاً، مادام العنبر التاسع قد ذهب.

اهتز السرير وتمايل، اثنان نهضا دفعة واحدة. أليوشكا المعمداني، جار شوخوف العلوي، وجاره السفلي بوينوفسكي، ضابط بحري، قائد فرقاطة سابق.

راح المناوبان الكهلان يتشاتمان، وهما يخرجان القاذورات، فقد اختلفا من منهما سيذهب لجلب الماء الساخن. فراحا يتبادلان الشتائم ويكيلان السباب لبعضهما، كما النسوة، وهنا زعق بهما اللحام الكهربائي، من المجموعة العشرين:

- أيه أيها الغبيان- ثم رماهما بجزمة لبادية.

ارتطمت الجزمة بالعمود بصوت خافت، فلاذا بالصمت.

في المجموعة المجاورة كان معاون رئيسها يدمدم مستاء:

- فاسيل فيودوريتش! لقد غشّونا في قسم التوزيع، يالهم من أوغاد: كان عدد وزنات التسعمائة غرام أربعاً، ولم يبق سوى ثلاث وزنات، فمن سوف يحرم؟

صحيح أنه قال ذلك بصوت خافت، لكن كل تلك المجموعة سمعت هذا الكلام، وحبست أنفاسها: من حصة من ياترى سيتم الاقتطاع مساءً.

أما شوخوف فكان لايزال راقداً على النشارة المضغوطة في فراشه. كان يتمنى أن يتغلب أحد الأمرين- إما أن يصاب بالبرداء، وإما أن ينتهي الوجع، أما على هذا النحو فلا أبيض ولا أسود.

وبينما كان المعمداني يتمتم بصلواته، عاد بوينوفسكي من الخارج، وأعلن، دون أن يوجه كلامه لأحد، لكن بنوع من الشماتة:

- تماسكوا يا رجال الأسطول الأحمر! من المؤكد ان درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر.

وقرر شوخوف الذهاب إلى النقطة الطبية.

وفي هذا الوقت بالذات سحبت يد، ذات سلطة، المعطف واللحاف عنه. ألقى شوخوف بالسترة عن وجهه، ونهض قليلاً. كان التتري النحيف يقف تحته، ورأسه على مستوى السرير العلوي.

إذن فهو يناوب خارج الدور، ولقد تسلل بهدوء.

- شي- ثمانمائة وأربعة وخمسون- قرأ التتري الرقم المسجل على الرقعة البيضاء، على ظهر المعطف الأسود- ثلاثة أيام حبس مع السخرة.

لم يكد يتردد صوته المميز المكبوت، حتى دبت الحركة في كل من لم ينهض بعد، في العنبر شبه المظلم، حيث لم تكن كل المصابيح مشتعلة، وحيث كان مئتا شخص ينامون في خمسين صفاً من الأسرة المبققة.

- على أي شيء أيها المواطن الرئيس؟، سأل شوخوف؟ محاولاً إعطاء صوته من الضعف أكثر مما كان يعاني.

مع السخرة- هذا يعني نصف عقوبة بالانفرادي فهناك سيقدمون له الطعام الساخن، ولن يكون هناك وقت للتفكير. أما العقوبة بالانفرادي، فتكون بدون سخرة، وهنا الطامة الكبرى.

- لماذا لم تنهض مع نفير الاستيقاظ؟ هيا إلى القومندان- أوضح التتري بتكاسل، لأنه من الواضح له ولشوخوف، وللجميع، لماذا عقوبة الانفرادي.

كان وجه التتري المغضن، الخالي من الشعر، لا ينم عن أي تعبير. والتفت بحثاً عن ضحية أخرى، لكن الجميع كانوا في شبه العتمة، أو في ضوء الصباح، في الطابق الأول أو الثاني من الأسرة، يدفعون سيقانهم في البناطيل القطنية السوداء، ذات الأرقام على الركبة اليسرى، أو انتهوا من اللباس، وراحوا وهم يتدثرون، يخرجون على عجل، لينتظروا التتري في الساحة.

لو ان شوخوف عوقب بالانفرادي لذنب اقترفه، إذن لما شعر بمثل هذا الضيق. ومما ضاعف هذا الشعور أنه كان

باستمرار في عداد أول من ينهض، لكن الاستئذان من التتري مستحيل.

إنه يعرف ذلك، ومع هذا فقد استمر في طلب الإذن، بحكم العادة، وراح شوخوف، وهو لايزال في بنطاله القطني، الذي لم يخلعه ليلاً، (فوق الركبة اليسرى أيضاً خيطت رقعة رثـة وسخة، تحمل رقماً أسود، أصبح باهتاً الآن "شي- ٨٥٤")، يرتدي المعطف، (الذي يحمل رقمين من هذا النوع، واحـداً على الصدر، وواحداً على الظهر)، ثم عثر على جزمته اللبادية في الكومة، الملقاة على الأرض، ولبس قبعته (التي تحمل رقعـة مماثلة، عليها الرقم نفسه في المقدمة)، وخرج في إثر التتري.

جميع أفراد المجموعة مئة وأربعة رأوا كيف أخذ شوخوف، لكن أياً منهم لم ينبس ببنت شفة: لا جدوى من ذلك، ثم ماذا يقال؟ كان بوسع رئيس المجموعة أن يتشفع له قليلاً، لكنه لم يكن موجوداً. وبدوره لم ينطق شوخوف بكلمة، و لم يعد إلى إثارة غضب التتري. لسوف يحتفظون بفطوره، لن ينسوه.

هكذا خرجا معاً.

كان الصقيع مصحوباً بالسديم، الذي يجعل التنفس صـعباً. كان ثمة مصباحان كاشفان كبيران، يضربان المنطقة بـشكل متقاطع من الركنين النائيين. هذا بالإضافة إلى مصابيح المنطقة والمصابيح الداخلية.

كان ما نصب منها من الكثرة، بحيث أنها جعلت النجـوم تخبو.

كان المعتقلون يغذون السير عبر الثلج، الذي يصر تحت وقع جزماتهم اللبادية، كل لشأنه- بعضهم لقضاء حاجة، وآخر إلى حيث الماء الساخن، وثالث إلى مستودع الطرود، وآخر يحمل

البرغل إلى المطبخ الفردي. كانوا جميعهم قد خبأوا رؤوسهم بين أكتافهم، وتدثروا بمعاطفهم، وهم جميعاً يشعرون بالبرد، ليس بسبب الصقيع، بقدر ما هو نتيجة التفكير أن عليهم البقاء يوماً بكامله في هذا الجو القارس.

أما التتري في معطفه العتيق، ذي العرى الزرقاء الوسخة، فكان يمشي بخطوة متزنة، لكأن الصقيع لا يؤثر فيه أبداً.

مرا قرب سياج خشبي عالٍ، يزنر سجن المعسكر الحجري، بجوار الأسلاك الشائكة، التي مُدت لحماية فرن المعسكر من المعتقلين، بالقرب من زاوية عنبر القيادة، حيث علق القضيب الحديدي على عمود، مربوطاً بسلك يحيط به، كما مرا بالقرب من عمود آخر، حيث علق ميزان الحرارة، المغطى بالندى الثلجي، في مكان هادئ، لا يؤشر على درجة منخفضة جداً. لو أن مؤشر الحرارة اليوم انخفض إلى الرقم واحد وأربعين، إذن لما كان عليهم الخروج إلى العمل. لكن درجة الحرارة اليوم بالكاد تصل إلى الأربعين.

دخلا عنبر القيادة ومن ثم إلى غرفة المراقبين. وهنا تبين، كما حدس شوخوف، وهو في طريقه إلى هنا، أنه ليس ثمة من انفرادي بانتظاره، وكل ما في الأمر أن الأرضية في غرفة المراقبين غير ممسوحة. والآن أعلن التتري أنه يصفح عن شوخوف، وأمره أن يغسل الأرضية.

كان مسح الأرضية في غرفة المراقبين من مهام معتقل خاص، لم يكن يغادر منطقة المعسكر- إنها مهمة مباشرة للمناوب في عنبر القيادة. لكن هذا المناوب، الذي استقر في عنبر القيادة منذ عهد بعيد، أصبح قادراً على دخول مكاتب الرائد ورئيس الانضباط، بل وحتى رئيس المعسكر بالذات،

يقدم لهم خدماته، ويسمع أحياناً ما لم يكن حتى المراقبين يعرفونه، ومنذ بعض الوقت اعتبر أن مسح الأرضية للمراقبين العاديين عمل لا يليق به، ولقد ناداه هؤلاء مرة وأخرى، وحين أدركوا جلية الأمر، بدأوا يكلفون المعتقلين بمسح الأرضية.

كانت المدفأة متوهجة في غرفة المراقبين. وكان ثمة مراقبان يلعبان الداما، وهما بلباسهما الداخلي الوسخ، بينما كان ثالث نائماً على رف ضيق، وهو لايزال في معطفه المزنر، وفي جزمته اللبادية. وفي الزاوية كان ثمة دلو وممسحة.

شعر شوخوف بالفرح، وقال للتتري مودعاً:

- شكراً لك أيها المواطن الرئيس. لن أتمادى في الرقود بعد الآن.

كان القانون هنا بسيطاً: تنصرف ما إن تنجز عملك. الآن وبعد أن كلف شوخوف بهذا العمل، شعر وكأن وجعه توقف. تناول الدلو، وبدون قفازات، (نسيها من العجلة، تحت الوسادة)، توجه إلى البئر.

كان عدد من رؤساء المجموعات، الذين ذهبوا إلى قسم التخطيط الإنتاجي، يتحلقون قرب العمود، بينما تسلق أحدهم وهو أكثرهم شباباً، ثم إنه بطل الاتحاد السوفيتي سابقاً، العمود، وراح يمسح ميزان الحرارة.

ونصحوه من الأسفل:

- تنفس بعيداً عنه، وإلا ارتفعت درجة الحرارة.

- إن انخفضت أو ارتفعت...الأمر سيان.

لم يكن تيورين، رئيس مجموعة شوخوف بينهم. وهكـــذا فقد وقف شوخوف يتفرج بفضول، وقد عقد يديـــه داخـــل كميه.

ومن على العمود قال ذاك بصوت مبحوح:

- سبع وعشرون ونصف، تباً لها.

وبعد أن ألقى نظرة أخرى للتأكد، قفز نازلاً.

- إنه غير دقيق، يخطيء باستمرار- قال أحدهم وأردف- وهل يعقل أن يضعوا ميزان حرارة صحيحاً في المعسكر؟.

تفرق رؤساء المجموعات، فجرى شوخوف نحو البئر، وشعر أن أذنيه تكادان تتجمدان تحت غطاء الأذنين المتدلي، وغـــير المربوط.

كانت مياه البئر متجمدة بطبقة سميكة، وبالكاد اســـتطاع الدلو المرور عبر الفتحة، أما الحبل فكان صلباً كما الوتد.

عاد شوخوف إلى غرفة المراقبين، حاملاً الـــدلو والبخـــار يتصاعد منه بكثافة، وهو لا يشعر بيديه، وحين وضـــعهما في مياه البئر، دب فيهما الدفء.

لم يكن التتري هناك، أما المراقبون فقد تجمعوا أربعة، وقـــد تخلوا عن الداما والنوم، وراحوا يتناقشون حول كمية جريش الدخن، التي ستعطى لهم في كانون الثاني (كان هناك نقص في المواد الغذائية في القرية، وكان المراقبون، على الرغم من انتهاء بطاقاتهم التموينية من زمان، يشترون بعض المواد مع الحسم).

وزعق أحدهم:

- هلا أغلقت الباب بإحكام أيها الحقير! برد.

لم يكن من المناسب أبداً أن تتبلل جزمة اللباد منذ الصباح. لكن ليس ثمة من حذاء آخر يرتديه، حتى ولو جرى إلى العنبر.

لقد رأى شوخوف، على مدى أعوام الاعتقال الثمانية، الكثير من الأنظمة المتعلقة بالأحذية: فقد صدف أن أمضوا الشتاء بدون جزمة لباد مطلقاً، وصدف أنهم لم يروا تلك الأحذية. مجرد أخفاف من الألياف اللبية، وخفافات مطاطية، أما الآن فقد تحسن الوضع بالنسبة للأحذية، على ما يبدو: ففي تشرين الأول حصل شوخوف على حذاء متين، بمقدمة صلبة، يتسع لزوجين من الأربطة الدافئة. على مدى أسبوع ظل يتبختر فيه كما العريس، وهو لا يكف يقرع الأرض بكعبيه الجديدين. وفي كانون الأول أصبحت جزمات اللباد جاهزة- ياللحياة المرفهة لا داعي للموت بعد الآن. لكن أحد الأبالسة في المحاسبة همس للرئيس: ليحصلوا على الجزمات اللبادية، على أن يسلموا الأحذية، وإلا فإن ذلك مخالف للنظام، إذ كيف يمكن للمعتقل أن يكون لديه زوجان من الأحذية في وقت واحد. ووجد شوخوف نفسه مرغماً على الاختيار: إما أن يبقى الشتاء كله في الحذاء، أو في الجزمة. تريد الدفء، إذن سلم الحذاء. لكم صانه، ولكم دهنه بالزيت الكثيف، لكي يبقى طرياً، إنه حذاء جديد.

آه، لم يأسف خلال هذه الأعوام الثمانية على شيء، كما أسف على ضياع هذا الحذاء، فقد ألقوا بالأحذية في كومة واحدة، وفي الربيع لن يكون من نصيبك، تماماً كما حدث، حين سيقت الجياد إلى الكلخوز.

والآن تصرف شوخوف على النحو التالي: خلع الجزمة اللبادية برشاقة، ووضعها في الزاوية، ثم ألقى بالأربطة إلى هناك (رنت الملعقة على الأرض، لم ينس الملعقة، على الرغم من السرعة التي جمع فيها أغراضه، ظناً منه أنه ذاهب إلى

الانفرادي)، واندفع باتجاه المراقبين، حافي القدمين، وهو يصب الماء، بواسطة الممسحة بسخاء.

– هيه أنت، إنتبه يا حقير– صاح به أحدهم وهو يرفع قدميه، ويضعهما على الكرسي.

– الرز؟ إن الرز يعطى بمعدل مختلف، فلا تأخذ الرز معياراً.

– لماذا تدلق الماء بهذه الكثرة يا أحمق؟ من يمسح على هذا النحو؟.

– أيها المواطن الرئيس! لا يمكن أن ينظف إلا بهذه الطريقة، فالوسخ متجذر...

– ألم يسبق لك أن رأيت كيف تغسل امرأتك الأرض، أيها الأبله؟

استقام شوخوف، حاملاً في يده الممسحة، والماء يتدفق منها. ثم ابتسم بسذاجة، كاشفاً عن افتقاره إلى عدد من الأسنان، التي أصابها الإسقربوط في أوست إيجما في عام ثلاثة وأربعين، حين أصابه المرض. لقد استفحل مرضه آنذاك لدرجة أن الإسهال الدامي أذاقه الأمرين، ولم تعد أمعاؤه المستترفة تقبل أي طعام.

– في عام ثلاثة وأربعين فارقت امرأتي أيها المواطن الرئيس. ولم أعد أتذكر كيف كانت.

– على هذا النحو يكون المسح...لا يتقنون أي عمل، ولا يريدون ذلك، الدواب. إنهم لا يساوون حتى الخبز، الذي يعطون، ولا يستحقون أن يطعموا إلا القاذورات.

– ما جدوى مسح الأرضية كل يوم؟ إن ذلك يزيد من الرطوبة.

- إسمع يا ثمانمائة وأربعة وخمسون! هلا مسحتها بلطف، بحيث تكون مبللة قليلاً، ثم انقلع من هنا.

- الرز! لا تقارن الجريش مع الرز.

كان شوخوف يقوم بعمله بخفة ونشاط.

إن العمل عصا ذات طرفين: إذا كنت تعمل للناس، فاحرص على النوعية، أما إذا كنت تعمل للرئيس فاحرص على المظهر. وإلا لكان الجميع قد فطسوا من زمان، دون ريب.

مسح شوخوف خشب الأرضية، بحيث لم يبق بقع جافة، ورمى بالممسحة دون عصر، خلف المدفأة، ثم ارتدى جزمته عند العتبة، ورش قليلاً من الماء على الدرب، حيث تمشي القيادة، بعدها انطلق نحو المطعم، سالكاً أقرب طريق بجوار الحمامات، مروراً بجانب النادي الداكن والبارد.

كان في عجلة من أمره لكي يلحق أن يصل إلى النقطة الطبية، فقد عاد الوجع إلى جسمه كله. كما كان عليه أن يحرص على أن لا يصادف المراقبين، أمام المطعم: إن أوامر قائد المعسكر صارمة- القبض على المتخلفين الفرادى وزجهم في الانفرادي.

والغريب أنه لم يكن اليوم ثمة جمهور غفير أمام المطعم، فلا دور هناك. تفضل.

في الداخل كان البخار كما في الحمام- بسبب تسرب الصقيع، عند فتح الأبواب، وبخار الحساء. كانت المجموعات تجلس خلف الطاولات، أو تتزاحم في الممرات، بانتظار الأماكن الشاغرة. وعلى الصواني الخشبية كان اثنان- ثلاثة من كل مجموعة يحملون صحون الحساء والعصيدة، وهم يصيحون

وسط الزحام، بحثاً عن أماكن لوضعها على الطاولات. لكن هذا لا يسمع الصياح، إن ظهره من خشب الشوح، وها هو قد دفع الصينية، ناوله بيدك الحرة- على عنقه، على عنقه!، أحسنت. لا تقف في الطريق، ولا تبحث عما يمكن أن يلعق. هناك وراء الطاولة يرسم شاب شارة الصليب، قبل أن يمس الطعام، هذا يعني أنه بينديري[1]، وأنه لايزال غراً: فالبينديريون القدامى، تخلوا عن الصليب، بعد أن استوطنوا في المعسكر.

أما الروس فقد نسوا بأية يد ترسم شارة الصليب. الجو في المطعم بارد، فترى أغلبهم يأكلون، وهم يرتدون قبعاتهم، لكنهم ليسوا في عجلة من أمرهم، وهم يتصيدون قطع السمك المهترئة من تحت أوراق الملفوف السوداء، ويبصقون العظام على الطاولة، يقوم أحدهم قبيل جلوس مجموعة جديدة بمسحها، فتسقط على الأرض، حيث تُهرس تحت الأقدام.

أما بصق العظام على الأرض فيعتبر نوعاً من الوساخة.

في وسط العنبر، كان ثمة صفان من الأعمدة أو الركائز، ولدى أحد هذه الأعمدة جلس فيتيوكوف، زميل شوخوف في المجموعة، يحرس له حصته. كان هذا واحداً من الدفعة الأخيرة، التي انضمت إلى المجموعة. وهو أكثر اكتنازاً من شوخوف، من الخارج.

المجموعة كلها في معاطف سوداء، ذات أرقام متشابهة، لكنها متباينة جداً من الداخل- درجات متفاوتة، فبوينوفسكي مثلاً، لا يمكنك أن ترغمه على الجلوس لتناول الطعام،

[1] نسبة إلى بينديري المولدفية / المترجم.

وشوخوف لا يمكن أن يقوم بكل عمل، فهناك من هم أدنى منه مرتبة.

ما إن رأى فيتيوكوف شوخوف حتى تنفس الصعداء، وهو يتخلى له عن مكانه:

- لقد برد كل شيء. ولقد هممت بالتهام فطورك، إذ اعتقدت أنك في الانفرادي.

ثم انصرف، إذ كان يعرف أن شوخوف لن يترك له شيئاً، وسوف ينظف الصحنين حتى درجة اللمعان.

أخرج شوخوف الملعقة من جزمته، وهذه الملعقة غالية عنده، فقد طافت برفقته الشمال كله، وكان قد صبها بيديه من سلك من الألمنيوم، وقد نقش عليها عبارة: "أوست- إيجما ١٩٤٤".

بعد ذلك نزع شوخوف القبعة عن رأسه الحليق، على الرغم من شدة البرد، فهو لم يكن يسمح لنفسه بتناول الطعام، إلا حاسر الرأس. وراح وهو يحرك الحساء المترسب، يبحث بسرعة عما كان من نصيبه. كان نصيبه مقبولاً. لم يصبوا له من أعلى القدر ولا من "القحاطة". ولاشك أن فيتيوكوف انتشل من الصحن، وهو يحرسه، كل ما كان فيه من بطاطا.

إن المتعة الوحيدة في الحساء هي سخونته، لكن ما أصاب شوخوف أصبح الآن بارداً تماماً. ومع هذا فقد راح يأكله بالبطء نفسه، وبكل تؤدة، فليس لديه من عمل عاجل بانتظاره. وإذا ما استثنينا النوم، فإن المعتقل لا يعيش لنفسه إلا دقائق الغداء الخمس، فدقائق العشاء الخمس.

لم يكن الحساء يختلف بين يوم وآخر، وكانت نوعيته تتوقف على أي صنف من الخضار أعد للشتاء.

ففي العام الفائت اقتصر التموين على الجزر المملح، وهكذا استمر حساء الجزر من أيلول حتى حزيران. أما الآن فقد جاء دور الملفوف الأسود. إن شهر الشبع بالنسبة للمعتقل هو حزيران، ففيه تنضب مؤونة الخضار، وبها يستبدل الجريش. أما الشهر الأسوأ فهو تموز- شهر الحساء القراصي.

لم يكن يصادف من السمك الصغير سوى العظام الكبيرة، أما اللحم فقد ذاب عنها، ولم يبق إلا على الرأس والذيل. ولم يكن يبقى على الشبكة الرقيقة لهيكل السمك العظمي لا الزعانف ولا أية ذرة من اللحم. راح شوخوف يقلب الهيكل العظمي بأسنانه، ويمص ما فيه، ثم يبصقه على الطاولة.

كان يأكل كل أقسام جسم السمكة بأنواعها، حتى الغلاصم، وحتى الذيل، وحتى العينين، أما عندما تكون مسلوقة، وتسبح في صحن الحساء، فإنه يتعفف عن أكل العينين الكبيرتين، فيثير ضحك زملائه.

اليوم وفر شوخوف الخبز، فهو لم يعرج على العنبر، ولم يستلم حصته من الخبز. لسوف يتناول الخبز فيما بعد، فيزداد شعوره بالشبع.

الصحن الثاني كان عصيدة الماغارا. وبعد أن بردت تحولت إلى سبيكة واحدة، راح شوخوف يفتتها إلى قطع. والماغارا، حتى وهي ساخنة، فما بالك بها باردة، لا لذة فيها ولا شبع منها: إنها مجرد أعشاب صفراء تشبه الجريش. لقد ابتدعوا تقديمها بدل الجريش، ويقال إنها مأخوذة عن الصينيين. وزن الوجبة المسلوقة بحدود ثلاثمائة غرام، إنها ليست بالعصيدة، لكنها تقدم كعصيدة.

لعق شوخوف الملعقة، ثم دسها في مكانها السابق، داخل الجزمة، وارتدى قبعته، وتوجه إلى النقطة الطبية.

كانت العتمة لاتزال تسربل السماء، التي جعلت مصابيح المعسكر نجومها تخبو. وكان المصباحان الكاشفان يقطعان منطقة المعسكر، بضوئهما العريض الباهر. ولما كان هذا المعسكر مميزاً، فقد كان الحراس مزودين بالكثير من الصواريخ المضيئة، وما إن ينطفىء الضوء، حتى تتناثر الصواريخ فوق المنطقة، الصواريخ البيضاء، الخضراء والحمراء، حرب حقيقية. لكنهم ما لبثوا أن توقفوا عن إطلاق الصواريخ. ربما لأنها تكلف غالياً!.

لايزال الليل إياه، ذاك الذي كان عند الاستيقاظ.

لكن العين الخبيرة قادرة من خلال مؤشرات صغيرة مختلفة، أن تكتشف بسهولة أن الاجتماع وشيك.

فمعاون خروموي (كان لخروموي، المناوب في المطعم، معاونه الخاص به وهو يقدم له الطعام) في طريقه لدعوة العنبر السادس، عنبر العجزة، أي أولئك الذين لا يغادرون المنطقة، إلى تناول الفطور. وهاهو الفنان الكهل، ذو اللحية الصغيرة، يجر قدميه إلى دائرة التثقيف والتربية، لجلب الدهان والفرشاة لكتابة الأرقام. وهاهو التتري يقطع بخطوات عريضة ساحة الاجتماع، يغذ السير باتجاه عنبر القيادة، وإجمالاً فقد قل عدد الموجودين في الخارج، مما يعني أن الجميع وجدوا لأنفسهم ملاذاً، يتنعمون فيه بدقائق الدفء اللذيذة الأخيرة.

اختبأ شوخوف بخفة خلف زاوية العنبر، ما إن رأى التتري، وإلا جاءت العاقبة وخيمة، إذا ما وقع بين يديه للمرة الثانية. ثم إن عليك أن تبقى دائم الحذر. ويجب أن تسعى جاهداً كي

لا يراك أي مراقب، وأنت بمفردك، فقط في الزحام. فلربما كان يبحث عمن يرسله للقيام بعمل ما، أو لربما كان يبحث عن ضحية، ليصب جام غضبه عليها: ألم تعمم على العنابر الأوامر برفع غطاء الرأس أمام المراقب، قبل خمس خطوات من الوصول إليه، وعدم ارتدائه إلا بعد تجاوزه بخطوتين. صحيح أن بعض المراقبين يمشي كما الأعمى، ولا يهتم بذلك، لكن البعض الآخر يتلذذ به، فكم جرجروا من أشخاص إلى الانفرادي بسبب غطاء الرأس هذا، يالهم من كلاب لعينة. من الأفضل أن تختبئ خلف الناصية.

تجاوز شوخوف التتري، و لم يكد يهم بالتوجه إلى النقطة الطبية، حتى تذكر أنه اتفق مع اللاتفي الطويل من العنبر السابع على أن يذهب إليه هذا اليوم، وقبل الاجتماع الصباحي، لشراء قدحين من التبغ، لكنه نسي ذلك تماماً. مساء البارحة استلم اللاتفي الطويل طرداً. وربما لن يبقى من هذا التبغ غداً شيء، فانتظر طرداً جديداً، بعد شهر. إن التبغ لديه جيد، صلب بما فيه الكفاية. وزكي الرائحة، بلون بني داكن.

تكدر شوخوف، ووقف متردداً- هل يتحول نحو العنبر السابع؟ ولما لم يكن قد بقي بينه وبين النقطة الطبية إلا مسافة قصيرة، فقد اندفع نحو مدخلها.

كان الثلج يصر تحت قدميه بشكل مسموع.

وفي النقطة الطبية كان الممر، كما هو دائماً، من النظافة بحيث أنك تخشى أن تسير على أرضيته. وكانت الجدران مدهونة بالدهان الأبيض العاجي، والأثاث كله بلون أبيض.

لكن أبواب العيادات كلها مغلقة، فالأطباء لم ينهضوا من الفراش بعد. وفي غرفة المناوبة يجلس مساعد الطبيب الشاب-

كوليا فدافوشكين، إلى طاولة نظيفة، في رداء أبيض جديـد، وهو منكب على الكتابة.

لم يكن ثمة من أحد آخر.

خلع شوخوف قبعته، كما يخلعها أمام الرؤساء، وحسب العادة المألوفة في المعسكر، باختلاس النظر إلى حيث لا يجوز، لم يستطع إلا أن يلاحظ أن نيقولاي كان يكتب بأسطر مضبوطة جداً، وكان يبدأ كل سطر بعيداً عن الهامش، تحت السطر السابق، وبحرف كبير. وبالطبع فقد أدرك شوخوف في الحال أن هذا ليس من صلب عمل كوليا، لكن هذا الأمر لا يعنيه.

- الواقع...يا نيقولاي سيميونيتش...يبدو أنني...مريض- قال شوخوف بفخر، كمن يطمع في ما لا يخصه.

- رفع فدافوشكين عينيه الكبيرتين الهادئتين عن العمل. كان يعتمر قلنسوة بيضاء، ورداء أبيض، وليس ثمة من أرقام عليهما.

- لماذا جئت متأخراً إلى هذا الحد؟ ولماذا لم تأت مساءاً؟ ألا تعرف أنه لا يوجد استقبال هذا الصباح؟، إن قائمة المعفيين أصبحت في قسم التخطيط الإنتاجي.

كان شوخوف يعرف هذا كله، كما يعرف أن الحصول على الإعفاء مساءاً ليس أسهل.

- لكن يا كوليا... لم يكن لدي وجع مساءاً...

- طيب وماذا لديك؟ مم تشكو؟.

- الواقع أنه يصدف أن لا شيء يوجعني. لكن جسمي كله مضعضع.

لم يكن شوخوف من أولئك الذين يترددون كثيراً على النقطة الطبية، وكان فدافوشكين يعرف ذلك. لكنه لم يكن مخولاً إعطاء الاستراحة صباحاً إلا لاثنين، ولقد سبق أن أعطاها لهما. إن اسمي هذين الشخصين مسجلان تحت الزجاج المائل للخضرة، الموضوع على الطاولة، وتحتهما خط.

- كان يجب أن تأتي قبل الآن. ما بالك جئت قبيل الاجتماع الصباحي مباشرةً؟ هاك.

أخرج فدافوشكين ميزان الحرارة عبر ثقب في قطعة من الشاش، ومسحه من المحلول، ثم أعطاه لشوخوف لقياس درجة حرارته.

جلس شوخوف على المقعد قرب الجدار، وقد جلس على طرف المقعد، عند حافته تماماً، شاغلاً مساحة صغيرة جداً، بالكاد تكفي لأن لا ينقلب هو والمقعد. إنه لم يختر هذا المكان غير المريح عمداً، بل ليظهر لاإرادياً أن النقطة الطبية لا تهمه، وأنه لم يأت إليها إلا لسبب واه.

أما فدافوشكين فقد تابع الكتّابة.

تقع النقطة الطبية في الركن النائي، الأكثر عزلة في المنطقة، ولم تكن تصل إلى هنا أية أصوات. والساعات لم تكن تدق- فالمعتقلون ليسوا بحاجة إلى الساعات، إذا كانت الرئاسة تعرف الوقت عنهم. حتى الجرذان لم تكن تصوصيء- فقد اصطادها كلها القط، الذي وضع هنا لهذا الغرض.

وجد شوخوف من الغرابة بمكان أن يجلس في مثل هذه الغرفة النظيفة، وفي مثل هذا الهدوء، وتحت ضوء المصباح الباهر لمدة خمس دقائق كاملة، دون أن يفعل شيئاً. راح يتفحص الجدران كلها، لكنه لم يعثر على شيء عليها. ثم

شرع يتفحص سترته فوجد أن الرقم على الصدر قد مسح قليلاً، لابد من تجديده، وإلا فقد يعاقبونه. ومسح بيده غير المشغولة وجهه، متحسساً لحيته، فقد طالت كثيراً، بعد الحمام الأخير، منذ أكثر من عشرة أيام، لكنها لا تضايقه. بعد قرابة ثلاثة أيام يحلِ موعد الحمام، وحينها سيحلقونها له، فما الداعي للوقوف عبثاً في الطابور أمام صالون الحلاقة؟ ليس لدى شوخوف من يهتم بمظهره، من أجله. وبعد ذلك تذكر شوخوف، وهو ينظر إلى قلنسوة فدافوشكين، نقطة الكتيبة الطبية على نهر لوفات، كيف جاء إليها بفك مصاب، لكنه لشدة غبائه عاد إلى وحدته بإرادته، علماً أنه كان بوسعه أن يرقد خمسة أيام.

أما الآن فإن الأمل يحدوه في أن يمرض أسبوعين- ثلاثة، شرط أن لا يكون مرضاً قاتلاً، وبدون عملية، المهم أن يدخلوه المستشفى، إذن لبقي راقداً أسابيع ثلاثة، دون أن يحرك ساكناً، حتى ولو أطعموه الحساء الخالي من الدسم- إنه راضٍ بذلك.

لكن حتى شوخوف تذكر أن الرقود في المستشفى لم يعد مسموحاً. فما إن ظهر الطبيب الجديد، ستيبان غريغوريتش العجول، المحب للعمل، حتى راح يتعذب، ويعذب المرضى، فقد أرغم جميع المرضى، القادرين على السير، على الخروج للعمل في المستشفى: إقامة السياج، تمهيد الدروب، إقامة الحواجز الترابية، والثلجية شتاءاً، حول أحواض الزهور، حيث يقال إن العمل هو الدواء الأول لكل مرض.

لكن حتى الجياد تنفق من العمل. هذا ما يجب أن يدرك. لو أنه ذاق طعم العمل في البناء الحجري، إذن لجلس بكل هدوء.

...أما فدافوشكين فهو مستمر في كتابته. كان بالفعل يقوم بعمل "جانبي"، لم يكن شوخوف يدرك كنهه. إن فدافوشكين ينسخ قصيدة طويلة جديدة، كان قد نظمها البارحة، وقد وعد ستيبان غريغوريتش، الطبيب المذكور، أن يطلعه عليها اليوم.

وكما يحدث في المعسكرات فقط، فإن ستيبان غريغوريتش نصح فدافوشكين أن يدعي أنه مساعد طبيب، ومن ثم وضعه مساعد طبيب. وبدأ فدافوشكين يتدرب على إجراء الحقن الشرياني للكادحين السمر، ولليتوانيين والأستونيين المطيعين، ولمن لا يمكن أن يخطر له ببال أن مساعد الطبيب يمكن أن لا يكون مساعد طبيب بتاتاً. كان كوليا طالباً في كلية الآداب، وقد اعتقل وهو في السنة الثانية، ولقد أراد ستيبان غريغوريتش أن يكتب في السجن ما منع من كتابته، وهو حر.

...ومن خلال الزجاج المزدوج، وغير الشفاف بسبب الجليد الأبيض، بالكاد سمع نفير الاجتماع الصباحي. تنفس شوخوف الصعداء، ونهض. كان لايزال محموماً، ومن الواضح أن الوعكة لم تنته. مد فدافوشكين يده، وأخذ ميزان الحرارة، ثم نظر إليه.

– أنظر، لا هذا ولا ذاك، سبع وثلاثون واثنتان، لو كانت ثمان وثلاثين، لكان ذلك واضحاً جلياً لأي كان. ليس بوسعي أن أعطيك استراحة. إذا أردت أن تبقى فعلى مسؤوليتك. بعد الفحص، إذا وجدك الطبيب مريضاً، أعطاك الاستراحة، أما إذا وجدك معافى، فترسل إلى السجن كمتمارض. الأفضل أن تذهب للعمل خارج المنطقة.

لم يحر شوخوف جواباً، حتى أنه لم يومىء برأسه، بل أمال قبعته على جبينه، وخرج.

هل يمكن لمن يعيش في الدفء أن يفهم المقرور؟.

البرد قارس. استولى الصقيع السديمي القارص على شوخوف، وأرغمه على السعال. كانت درجة حرارة الصقيع سبعاً وثلاثين، وكانت سبعاً وثلاثين لدى شوخوف.

والآن لمن ستكون الغلبة. انطلق شوخوف إلى العنبر خبباً. كانت ساحة الاجتماع خالية، وكان المعسكر كله خاوياً، كانت تلك اللحظة الفاصلة، التي توحي أن الاجتماع الصباحي لن يتم. فالحراس يجلسون في الثكنات الدافئة، وقد أسندوا رؤوسهم الوسنى إلى بنادقهم، فهم بدورهم ليسوا سعداء بالطبطبة على الأبراج في هذا الصقيع. وفي المحرس الرئيس يقوم البوابون برمي الفحم في المدفأة. وفي غرفة المراقبة يدخن المراقبون السيجارة الأخيرة، قبل التفتيش. أما المعتقلون فيرقدون، وهم يرتدون كامل ثيابهم المهلهلة، وقد تزنروا بكل الأمراس، ولفوا أنفسهم من تحت ذقونهم إلى عيونهم بالأسمال، خوفاً من البرد، يرقدون على الرفوف، فوق البطانيات، وهم في جزماتهم اللبادية، وقد أغمضوا عيونهم مذعورين، بانتظار أن يصرخ رئيس المجموعة: "استي- قاظ!" كان الكرى يداعب عيون الجميع في العنبر التاسع، بمن فيهم المجموعة مئة وأربعة. وحده مساعد رئيس المجموعة بافلو كان يحسب شيئاً بقلم الرصاص، وهو يتمتم. وعلى الرف العلوي كان أليوشا المعمداني، جار شوخوف النظيف والمغسول جيداً، يقرأ في دفتر ملاحظاته، حيث يوجد نصف الإنجيل منسوخاً. صحيح

أن شوخوف دخل كالسهم، لكن بكل هدوء، ثم توجه إلى سرير مساعد الرئيس.

رفع بافلو رأسه.

- ألم يسجنوك ياإيفان دينيسوفيتش؟ مازلت حياً؟.

(لا يمكن أن تعيد تعليم الأوكرانيين الغربيين، فحتى في المعسكر يخاطبون الشخص باسمه واسم أبيه، وبضمير أنتم).

ثم مد له حصته، بعد أن أخذها عن الطاولة، والحصة على شكل تلة بيضاء مقلوبة مغطاة بالسكر.

كان شوخوف في منتهى العجلة، ومع هذا رد بأدب.

(فمساعد رئيس المجموعة من القيادة أيضاً، لا بل إن ما يتوقف عليه من أمور أكثر مما يتوقف على قائد المعسكر).

كان شوخوف من العجلة لدرجة أنه لملم السكر عن الخبز بشفتيه، ولعقه بلسانه، وهو يضع إحدى قدميه على الحامل، لكي يتسلق إلى الأعلى، ويرتب فراشه، بينما راح يتمعن بحصته، ويزنها بيده: ترى هل تحتوي على الخمسمائة وخمسين غراماً، المخصصة له. لقد سبق لشوخوف أن تسلم الآلاف من أمثال هذه الحصص في السجون والمعتقلات، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من فحص أي منها في الميزان، وعلى الرغم من أنه لم يكن، بوصفه إنساناً هياباً، يجرؤ على إثارة الضجة، والمطالبة بحقه، فإن جميع المعتقلين، بمن فيهم شوخوف، كانوا يدركون أن من يقطع الخبز لا يستطيع أن يتمالك نفسه عن الغش في الوزن. وهكذا فإن هناك نقصاً في كل حصة- لكن ما هو هذا النقص، هل هو كبير؟ مرتين في اليوم تتفحص، ليطمئن قلبك- لعلهم لم يخدعوني اليوم كثيراً؟.

لعل حصتي كاملة الغرامات إلا قليلاً؟.

إنها تنقص حوالي العشرين غراماً- قرر شوخوف.

ثم قسم الحصة نصفين، دس أحدهما في عبه، تحت المعطف، حيث لديه جيب أبيض هناك، خيط خصيصاً لهذا الغرض (في المعمل تخاط المعاطف للمعتقلين بدون جيوب). أما النصف الآخر، الذي وفره من الفطور، فقد خطر له أن يلتهمه فوراً، لكن الأكل على عجل ليس طعاماً، وسيذهب هدراً، بدون شبع. وهنا مد يده ليخبيء حصته في الخزانة الصغيرة، لكنه عدل عن ذلك: فقد تذكر أن المناوبين عوقبوا على السرقة مرتين. إن العنبر كبير، وهو يمور بالحركة.

ولذا فقد عمد إيفان دينيسوفيتش، وقطعة الخبز لاتزال في يده، إلى سحب قدميه بمهارة من الجزمة، تاركاً الملعقة والأربطة هناك، وتسلق حافياً إلى فوق، ثم وسع الثقب في الفراش، وهناك في النشارة، خبأ نصف حصته، ثم نزع القبعة عن رأسه، وأخرج منها إبرة وخيطاً (كانا في مخبأ عميق، فالمراقبون يجسون القبعة أيضاً. في ذات مرة وخزت الإبرة أحد المراقبين، فكاد هذا يحطم رأس شوخوف من شدة الغضب).

قطبة، قطبة، قطبة، وأغلق الثقب خلف الحصة المخبأة. وفي هذا الوقت كان السكر قد أوشك على الذوبان في فمه. كان كل ما في شوخوف قد وصل أقصى درجات التوتر- خوفاً من الحرس الذي يمكن أن يزعق من على العتبة في أية لحظة. كانت أصابع شوخوف تتحرك بمهارة، بينما كان رأسه يستبق الأحداث، ليخمن بما سيحدث لاحقاً.

كان المعمداني يقرأ الإنجيل، ليس قراءة صامتة، بل بصوت مسموع (ربما قصداً، من أجل شوخوف، فهؤلاء المعمدانيون يحبون الدعاوة، مثلهم مثل الموجهين السياسيين):

"المهم أن لا يتعذب أحدكم كقاتل، أو كلص، أو كشرير، أو كطامع في ما ليس له. أما كمسيحي، فلا تخجل، بل مجد الله، على هذه القسمة".

لكم هو شاطر أليوشا: فهو يدس الكتيب في شق في الجدار بمهارة، لدرجة أن أحداً لم يعثر عليه في أي تفتيش. وبالحركات السريعة نفسها علق شوخوف السترة على العارضة، ومن تحت الفرشة أخرج قفازيه وزوجاً آخر من الأربطة العتيقة، ومرسة، وقطعة قماش برباطين. بعدها سوى النشارة في الفرشة (وهي حشوة قاسية ومضغوطة)، ثم رفع البطانية، ورمى بالوسادة في مكانها، ونزل وهو لايزال حافي القدمين، ثم بدأ يرتدي جزمته. في البداية ارتدى الأربطة الجيدة، الجديدة، ومن ثم الرديئة فوقها.

وهنا تنحنح رئيس المجموعة، ونهض، ثم أعلن:

- انتهى المبيت يامئة وأربعة، خروج.

وعلى الفور نهضت المجموعة كلها، النائم منها والصاحي، وتثاءبت.

ثم توجهت نحو باب الخروج. رئيس المجموعة معتقل منذ تسعة عشر عاماً، وهو لا يخرج بمجموعته إلى الاجتماع الصباحي إلا في الموعد المحدد، قال "خروج"..- هذا يعني أنه الوقت المحدد تماماً.

بينما كان أفراد المجموعة ينقلون أقدامهم ببطء، ويخرجون دون كلام، الواحد في إثر الآخر، أولاً إلى الممر، ومن ثم إلى الدهليز، أعلن رئيس المجموعة العشرين، الـ"خروج"، على غرار تيورين- لحقَّ شوخوف أن يرتدي جزمته فوق الأربطة المزدوجة، ثم ارتدى المعطف فوق السترة، وربط خصره بالحبل

بقوة (تم انتزاع الأحزمة الجلدية ممن كانت لديه، فالحزام في المعسكر الخاص محظور).

وهكذا فقد انتهى شوخوف، ولحق بآخر أفراد مجموعته في الدهليز- كانت ظهورهم المرقمة تغادر الباب إلى شرفة المدخل. كان المعتقلون، بأجسامهم الضخمة، نتيجة لفها بكل ما أمكن من الثياب، يتحركون نحو ساحة الاجتماع ببطء، بخط مائل، الواحد تلو الآخر، دون أن يحاولوا اللحاق ببعضهم، والثلج يصر تحت أقدامهم.

كانت العتمة لا تزال مخيمة، على الرغم من أن السماء من الشرق بدأت تخضوضر وتستنير. ومن الشرق هبت ريح خفيفة شريرة.

تلكم الدقائق هي الأكثر مرارة- الذهاب إلى الاجتماع الصباحي.

في العتمة، في البرد القارس، بكرش جائع، وليوم كامل. إن اللسان يصاب بالشلل، فلا يرغب أحد في تبادل الحديث مع الآخر.

عند ساحة الاجتماع كان المراقب المناوب يروح ويجيء.

- إيه يا تيورين، كم يجب أن أنتظر؟ من جديد تأخرت.

إذا كان المراقب المناوب يخيف شوخوف، فإن تيورين لا يخشاه، حتى أنه لم يكلف نفسه عناء الرد عليه في هذا الصقيع، بل تابع سيره صامتاً، ومن خلفه تسير مجموعته على الثلج، الذي يصر تحت الأقدام، ويزقزق.

لابد أنه أخذ كيلوغراماً من الشحوم: لأن المجموعة مئة وأربعة جاءت إلى طابورها من جديد، كما يتضح من المجموعات المجاورة. وإلى مشروع الضاحية الاشتراكية سوف

يرسلون المجموعات الأفقر والأغنى. أوي كم سيكون البرد قارساً هناك اليوم: سبع وعشرون مع ريح خفيفة، وليس ثمة من مكان تحتمي فيه، أو تتدفأ.

إن رئيس المجموعة بحاجة إلى الكثير من الشحوم: بعضها لقسم التخطيط الإنتاجي والبعض الآخر يعبيء به كرشه.

وعلى الرغم من أن رئيس المجموعة لا يتلقى الطرود، فإنه لا يبقى بدون شحوم. ما إن يتلقى أي من أفراد المجموعة طرداً، حتى يحمل إليه الهدية على الفور.

لن تعيش إلا على هذا النحو.

وعلى اللوح يكتب المناوب الأقدم:

– لديك مريض واحد اليوم يا تيورين، في الاجتماع ثلاثة وعشرون!

– ثلاثة وعشرون – يرد رئيس المجموعة، موافقاً.

من هو الغائب؟ إنه بانتيليف. لكن هل هو مريض؟.

وللحال بدأت الشوشرة بين أفراد المجموعة. يالبانتيليف اللعين، من جديد بقي في المنطقة، إنه ليس بالمريض أبداً، لكن المسؤول الأمني هو الذي تركه، مرة أخرى سوف يشي بأحدهم.

لسوف يستدعونه نهاراً، دون عائق، ولو أبقوه ثلاث ساعات. فلا عين رأت، ولا أذن سمعت.

كل هذا يتم عن طريق النقطة الطبية.

اسودت ساحة الاجتماع من كثرة المعاطف، وعلى طولها راحت المجموعات تتحرك ببطء نحو الأمام، للتفتيش. تذكر شوخوف أنه أراد تجديد الرقم على السترة، فاجتاز الساحة إلى الجهة الأخرى. وهناك كان اثنان، ثلاثة من المعتقلين يقفون

بالدور أمام الفنان، فانضم شوخوف إليهم. إن الرقم لايجر على المعتقل إلا الضرر، فبه يعرفك المراقب عن بعد، ويسجلك الحارس، وإن لم يجدد الرقم في الوقت المناسب- تعاقب بالانفرادي، لماذا لم تحرص على الرقم؟.

الفنانون في المعسكر ثلاثة، يرسمون اللوحات المجانية للقيادة، كما يتناوبون في القدوم إلى الاجتماع لكتابة الأرقام. اليوم هو دور العجوز، ذو اللحية الصغيرة الشائبة. وحين يكتب الرقم بالريشة على القبعة، يبدو كما الخوري، وهو يدهن جباه المصلين.

يكتب ويكتب، ثم ينفخ في القفاز. القفاز من القماش، رقيق، فتتجمد يده، ولا يستطيع كتابة الأرقام.

جدد الفنان رقم"شي- ٨٥٤" على سترة شوخوف، ودون أن يربط المعطف، لأنه أصبح قريباً من المفتش، لحق شوخوف بمجموعته، والحبل لايزال في يده. وللحال لاحظ أن قيصر، وهو في مجموعته، يدخن. لم يكن يدخن الغليون، بل سيجارة- إذن يمكن أن يأخذ نفساً. لكن شوخوف لم يلجأ إلى الطلب، بل وقف بجوار قيصر، وألقى عليه نظرة جانبية.

كان ينظر بشكل جانبي، وكأنه غير مبال، لكنه كان يرى حاشية الرماد الأحمر، وهي تتحرك بعد كل سحبة (كان قيصر نادراً ما يأخذ سحبة. فهو مستغرق في التفكير) عبر السيجارة، فتقصرها، وتزداد قرباً من المبسم. وعلى حين فجأة ظهر فيتيوكوف "ابن آوى"، ووقف أمام قيصر مباشرة، وراح يبحلق في فمه، وعيناه تتوهجان.

لم يكن قد بقي لدى شوخوف ذرة تبغ واحدة، ولم يكن يتوقع أن يحصل عليه اليوم قبل المساء- وقف ينتظر على أحر

من الجمر، وكان يبدو أنه في أشد الرغبة للحصول على عقب السيجارة هذا- لكنه ما كان ليسمح لنفسه بالنزول إلى هــذا الدرك، الذي نزل إليه فيتيوكوف، فينظر إلى فم قيصر.

كان قيصر مزيجاً من جميع الأقوام، فأنت لا تعرف هل هو يوناني، أم يهودي، أم غجري. إنه لا يزال شاباً.. كان يصور الأفلام السينمائية، لكنه لم يلحق أن يصور فلمه الأول، حتى زجوا به. إن شاربيه أسودان متصلان وكثيفان. ولم يحلقوهما له هنا، لأن صورته في الاضبارة تحملهما.

لم يتحمل فيتيوكوف، وقال وقد سال لعابه:

– قيصر ماركوفيتش! أعطني لأسحب سحبة.

واختلج وجهه من شدة الرغبة والنهم.

... فتح قيصر جفنيه، شبه المسبلين فوق عينيه السوداوين، ثم نظر إلى فيتيوكوف. لقد أصبح غالباً ما يدخن الغليون كي لا يقاطعوه، وهو يدخن، طالبين سحبة. لم يكن التبــغ مــا يأسف عليه، بل الفكرة المقطوعة. فهو يدخن لكــي يــوقظ الفكرة القوية لديه، ويدعها تعثر على شيء ما، لكنه لايكــاد يشعل السيجارة، حتى يقرأ في عدة عيون من حوله:

"دعني أدخنها".

... التفت قيصر إلى شوخوف، وقال:

– هاك يا إيفان دينيسوفيتش.

وبإصبعه الكبيرة أخرج العقب من المبسم الكهرماني القصير. انتفض شوخوف (كان ينتظر أن يعرض عليه قيــصر ذلــك بنفسه)، أسرع يتناول عقب السيجارة بإحدى يديه شــاكراً، بينما وضع اليد الثانية تحت العقب ليتلقفه في حال ســقوطه. وهو لم يزعل لأن قيصر اشمأز من إعطائه العقب مع المبــسم،

(فالأفواه لدى البعض نظيفة، ونتنة لدى البعض الآخر). ولم تحترق أصابعه المتبقية، وهي تمسك بالنار نفسها. المهم أنه قطع الطريق على فيتيوكوف- ابن آوى، وهاهو ذا الآن يسحب الدخان إلى أن بدأت شفتاه تحترقان بالنار. م.م.م.م. انتشر الدخان عبر أرجاء الجسم الجائع، فتردد في قدميه ورأسه.

لم تكد هذه المتعة تنداح عبر جسده، حتى سمع إيفان دينيسوفيتش زمجرة:

- يصادرون القمصان الداخلية.

كل حياة المعتقل على هذا النحو. ولقد اعتاد شوخوف: ابق على حذر، لكي لا يأخذوا بخناقك.

لماذا القمصان؟ القائد نفسه هو الذي وزع القمصان؟... كلا ليس هكذا..

لم يكن قد بقي أمام المجموعة ١٠٤ للوصول إلى التفتيش سوى مجموعتان، حين رأى جميع أفرادها رئيس الانضباط، الملازم فولكافوي، قادماً من عنبر القيادة. ثم صرخ بشيء مخاطباً المراقبين. وللحال أصبح المراقبون، الذين كانوا يفتشون بتساهل، قبل ظهور فولكافوي، في منتهى التشدد والصرامة، وانقضوا على المعتقلين، كما الوحوش، أما رئيسهم فقد صرخ:

- فك القمصان.

لم يكن المعتقلون، ولا حتى المراقبون وحدهم من يخاف فولكافوي، بل يقال إن قائد المعسكر نفسه يخشاه. لقد وسمه الله بهذه الكنية[٢]- فهو لا ينظر إلا كما ينظر الذئب.

---

[٢] فولكافوي: اسم مشتق من كلمة فولك، وتعني الذئب / المترجم.

إنه داكن اللون طويل القامة، مقطب الجبين- ويندفع على عجل. يبرز من العنبر، ويزعق: لماذا هذا الاجتماع هنا؟، فلا تلحق أن تتوارى. في البداية كان يحمل كرباجاً، بطول مرفق اليد، وهو كرباج جلدي مفتول. ويقال إنه كان يستخدمه للجلد في السجن. أو عند التفقد المسائي. حين يتجمهر المعتقلون عند العنابر، يتسلل هو من الخلف، ويجلد أحدهم بكرباجه على عنقه: "لماذا لا تقف في الطابور يا وغد؟"، فيبتعد الجمهور عنه كما الموجة، ويتلمس الملسوع عنقه، ويمسح الدم، وهو صامت خوفاً من عقوبة السجن. والآن لم يعد يحمل الكرباج.

في التفتيش العادي، أثناء الصقيع، يكون النظام سهلاً ومتهاوناً. إن لم يكن مساء، ففي الصباح على الأقل: كان المعتقل يفك المعطف ويفتح طرفيه جانباً. هكذا كانوا يسيرون خمسة، بينما يقف خمسة مراقبين للقائهم، كانوا يلامسون المعتقل على جانبي السترة المربوطة عند الخصر، ويربتون على الجيب الوحيد المسموح به، على الركبة اليمنى وهم يرتدون القفازات: إذا ما لمسوا شيئاً ما غير مفهوم، فإنهم لم يكونوا يستخرجونه على الفور، بل يسألون بتكاسل: "ما هذا؟".

ما الذي يمكن البحث عنه لدى المعتقل في الصباح؟ المدى؟". لكنهم لا من المعسكر يحملونها، بل إليه. في الصباح يفتشون عما إذا كان أحدهم يحمل معه كيلو غرامات ثلاثة من الخبز، لكي يهرب بها. في فترة سابقة وصل بهم الخوف من قطعة الخبز، التي تزن مئتي غرام، والمخصصة لوجبة الغداء، أن صدر القرار بأن يكون لكل مجموعة حقيبتها الخشبية الخاصة، يحمل فيها كل خبز المجموعة، وأن يتم جمع كل قطع الخبز من أفراد المجموعة، لكن ما الذي أرادوا أن يكسبوه، هؤلاء الأعداء، من هذا الإجراء_ لا يمكن التكهن بذلك، على الأرجح لكي يتعذب المعتقلون تحت ثقل هم جديد: اقضم من حصتك قليلاً، وعلمها، ثم ضعها في الحقيبة، وابق الطريق بطوله تحت عبء التفكير والقلق على مصير حصتك، خوفاً من أن يتم تبديلها، فتدخل في الجدال الذي يصل أحياناً حد الضرب. لكن حدث ذات مرة أن هرب ثلاثة من المنطقة الإنتاجية في سيارة، حاملين معهم حقيبة ملأى بالخبز. وهنا ثاب الرؤساء إلى رشدهم، وحطموا الحقائب كلها، وعاد كل معتقل يحمل حصته.

كما يفتشون في الصباح عما إذا كان المعتقل يرتدي الثياب المدنية، تحت ثياب المعسكر. لكن كل الأشياء المدنية سحبت بكاملها من الجميع، وقالوا إنهم لن يسلموها قبل نهاية العقوبة، وحتى الآن لم تنته العقوبة لدى أي كان من نزلاء هذا المعسكر.ويفتشون أيضاً عما إذا كان أحدهم يحمل رسائل ليرسلها عبر شخص في الخارج. لكن إذا كان البحث سيتم عن التفتيش عن الرسائل لدى كل معتقل، فلن ينتهي التفتيش قبل موعد الغداء. لكن فولكافوي صرخ طالباً البحث عن

شيء ما ـــ وللحال نزع المراقبون قفازاهم، وأمروا المعـــتقلين بفك ستراهم (حيث خبأ كل منهم دفء العنبر)، وفك أزرار القمصان، وراحوا يدسون أيديهم، ويتلمسون بحثاً عـــن أي لباس مخالف للأنظمة. يسمح للمعتقل بقميـــصين، داخلـــي وخارجي، أما الباقي فيخلع ـــ تلكم هي أوامر فولكافوي، التي تناقلها المعتقلون، من نسق إلى آخر. أما المجموعات التي ســـبق أن مرت، فقد حالفها الحظ، بعضهم أصبح خارج البوابة. أما الباقون فعليهم أن يكشفوا عن ثياهم، ومن لديه ثياب مخالفـــة عليه أن يترعها في الحال، في هذا الصقيع.

على هذا النحو بدأوا، لكنهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفـــسهم إزاء مشكلة: فقد أصبحت البوابـــة فارغـــة، وراح الحـــرس يصيحون من المحرس: هيا، هيا! واستبدل فولكافوي العطـــف بالغضب بالنسبة للمجموعة ١٠٤، حيث أمر بتسجيل الثياب الزائدة لدى كل معتقل، على أن يـــسلمها بنفـــسه مـــساء، ويكتب مذكرة إيضاحية: كيف ولماذا خبأها.

كل ما يرتديه شوخوف رسمي، هاك تلمـــس ـــ الـــصدر والروح، و لدى قيصر سجلوا قميصاً قطنياً سميكاً، أما لـــدى بوينوفسكي فقد سجلوا صدرية أو مئزراً. كان بوينوفـــسكي غير هياب - فقد اعتاد على كاسحات الألغام، ولما يمض عليه في المعسكر ثلاثة أشهر:

- لا يحق لكم أن تعروا الناس في هذا الـــصقيع. إنكـــم لا تعرفون المادة التاسعة من القانون الجنائي...

يحق لهم. يعرفون، إنك أنت من لا يعرف يا أخ.

ويتابع الرائد تقريعهم: لستم أناساً سوفيت.

لقد صبر فولكافوي على المادة التاسعة، لكنه الآن تشنج كما البرق الأسود:

- عشرة أيام سجن.

وأضاف مخاطباً الرقيب بصوت خافت:

- بحلول المساء تكون مذكرة الزج جاهزة.

إنهم لا يحبون إنزال عقوبة الزنزانة صباحاً: وإلا ضاع يوم عمل بالنسبة للمعاقب. فليحنِ ظهره نهاراً، وعند المساء يساق إلى السجن.

إن السجن قريب، على يسار ساحة الاجتماع: وهو بناء حجري مؤلف من جناحين. الخريف الماضي أنجز بناء الجناح الثاني، إذ لم يعد الأول كافياً. في السجن ثماني عشرة زنزانة، بما فيها الزنزانات الفردية المحصنة. المعسكر كله خشبي، باستثناء السجن، فهو حجري.

لقد تسلل البرد إلى ما تحت القميص، والآن لم يعد بالا مكان طرده. كل جهود المعتقلين للحفاظ على الدفء ذهبت سدى. إن ذلك يكاد يقصم ظهر شوخوف. آه من لـه الآن بالرقود في سرير المشفى والنوم. إنه لا يريد أي شيء آخر. المهم أن تكون البطانية ثقيلة جداً.

يقف المعتقلون أمام البوابة، يزررون، ويتحزمون، ومن الخارج يتناهى صياح الحرس:

- هيا! هيا!.

والمراقب يدفعهم في ظهورهم:

- هيا! هيا!.

البوابة الأولى. فرجة ما قبل المنطقة. البوابة الثانية. والحاجز من الجانبين، قرب المخفر.

ويزعق الخفير:

- قفْ. تبدون كقطيع من الغنم. اصطفوا خمسة، خمسة.

بدأتَ تباشير الفجر تلوح. وبدأت نار الحراس خلف المخفر تلفظ أنفاسها الأخيرة. فهم يضرمون النار دائماً قبيل الاجتماع الصباحي، لكي يتدفأوا،ولكي تسهل عليهم الرؤية عند العد.

راح أحد الخفراء يعد بصوت عال وحاد:

- الأولى، الثانية، الثالثة!.

كانت الخمسات تنفصل، وتسير سلاسل منفردة، فلا ترى إن من الخلف، أو الأمام سوى: خمسة رؤوس، خمسة ظهور، عشر أقدام.

وهناك خفير ثان_ مراقب، يقف لدى الحاجز الآخر، ومهمته أن يراقب صحة العد.

وثمة ملازم يقف، ويراقب أيضاً.

هؤلاء من المعسكر.

الإنسان أثمن من الذهب. إن نقص رأس خلف الأسلاك الشائكة، تسد هذا النقص برأسك. من جديد تلاقت المجموعة كلها مع بعضها.

والآن راح عريف الخفر يعد:

- الأولى، الثانية، الثالثة!.

ومن جديد راحت الخمسات تنفصل، وتسير سلاسل منفردة. ومن الجهة الأخرى يقف مساعد رئيس الحرس، ويراقب. وثمة ملازم آخر.

هؤلاء من حرس المرافقة

الخطأ لا يجوز أبداً. إذا ما وقعت على رأس زائد، دفعت رأسك ثمناً لذلك.

الكثير من حرس المرافقة مغروزون في كل مكان. وعلى شكل نصف دائرة، احتضنوا طابور المحطة الكهرحرارية، رافعين رشاشاهم، وهم يصوبوها إلى بوزك مباشرة. وهناك الحراس برفقة الكلاب الرمادية. ولقد كشر أحد الكلاب عن أنيابه، كما لو أنه يضحك من المعتقلين. جميع حرس المرافقة في معاطف قصيرة، إلا ستة منهم يرتدون المعاطف المصنوعة من فرو الضأن. وهذه المعاطف لديهم تلبس بالتناوب، حيث يرتديها من يقف حارساً على الأبراج.

ومن جديد قام الحارس المرافق بإعادة عد طابور المحطة الكهرحرارية، خمسة، خمسة.

وأعلن الرائد:

ــ عند الفجر يصل الصقيع ذروته، فهو لا يشكل آخر نقطة في البرد الليلي.

إن الرائد يحب الإيضاح إجمالاً. والقمر هل هو هلال أم بدر، إنه يحسب لك ذلك لأي عام، ولأي يوم.

الرائد يسير نحو نهايته بسرعة، فقد غار خداه، ومع هذا فهو حيوي ونشيط.

الصقيع هنا، خارج المنطقة، حيث الريح القوية، راح يلسع بقوة حتى وجه شوخوف، الذي يتحمل كل شيء. وكان شوخوف قد حدس بأن الريح في الطريق إلى المحطة سوف تهب في الوجه دائماً، فقد قرر أن يلبس قطعة القماش. كان مثله مثل الكثيرين، يحمل قطعة القماش، ذات الرباطين الطويلين، لاستخدامها عندما تكون الريح معاكسة. وقد

اكتشف المعتقلون أن مثل هذه القطعة تساعد. غطى شوخوف وجهه حتى عينيه، ومن تحت أذنيه مد الرباطين، ثم عقـــدهما على قذاله.

بعد ذلك غطى القذال بقلبة القبعة، ورفع قبة المعطف، كما أنزل قلبة القبعة الأمامية فوق جبينه، وهكذا لم يعد يظهر منه من الأمام سوى عينيه، ثم إنه ربط خصره فوق المعطف جيداً، بواسطة الحبل. الآن أصبح كل شيء جيداً، باستثناء القفازين التالفين، مما أدى إلى تجمد يديه، فراح يفركهما، ويصفق بهما، وهو يعرف أن عليه الآن أن يضعهما خلف ظهره، ويحـــافظ عليهما في هذه الوضعية، الطريق بطوله.

تلا رئيس الحرس "صلاة" الاعتقال اليومية المملة.

- انتبهوا أيها المعتقلون! أثناء المسير يتم التقيد بنظام الرتل الصارم.

يحظر التباطؤ والإسراع، ويمنع الانتقال من خمسة إلى خمسة أخرى، الكلام ممنوع وكذلك التلفت، تبقى اليـــدان خلـــف الظهر. وأي خطوة إلى اليمين، أو إلى اليـــسار،تعتبر فـــراراً، ويطلق الحارس النار بدون تحذير. إلى الأمام سر.

وعلى ما يبدو فقد تحرك الخفيران الأماميان عبر الطريـــق. ترجرج الطابور في الأمام، وبدأ يهز أكتافه، وعلى بعد عشرين خطوة على يمين الطابور ويساره، تحرك الحـــراس، وبنـــادقهم جاهزة، وبين الحارس والآخر عشر خطوات.

منذ حوالي أسبوع لم يسقط الثلج، فكان الطريق واضـــحاً مطروقاً. بعد أن التفوا حول المعسكر أصبحت الريح المعاكسة مائلة. كان الطابور يمشي والأيدي خلف الظهر، والـــرؤوس مطرقة، كمن يسير في جنازة.

ولا ترى الأقدام إلا لدى الرتلين، أو الثلاثة الأمامية، وتتناثر التربة من وقع الأقدام. وبين الفينة والأخرى يصيح أحد الحراس: "يو_ ثمانية وأربعون! اليدان إلى الخلف"، "بي - خمسمائة واثنان! تقدم"، ومن ثم أصبحوا نادراً ما يصيحون: الريح تلسع، وتجعل النظر صعباً. ثم إنه يحظر عليهم أن يلفوا وجوههم بالقماش. إنهم بدورهم لا يحسدون على عملهم.

أثناء الطقس الدافئ لا يكف المعتقلون عن الحديث، مهما زعقت بهم. أما اليوم فقد أطرقوا برؤوسهم جميعاً، ودفن كل منهم نفسه وراء ظهر من يسبقه، ثم استغرقوا في التفكير.

حتى تفكير شوخوف ليس حراً، فهو لا يكف يعود إلى الشيء نفسه، ويقلب الأمر من جديد: ألن يعثروا على الحصة في الفرشة؟ هل سأمنح في النقطة الطبية استراحة مساء؟ هل سيزج بالرائد أم لا؟ وكيف تمكن قيصر من الحصول على قميصه الداخلي الدافئ؟ لاشك أنه رشا أحدهم في قلم الأغراض الشخصية، وإلا من أين له إذن؟.

كان شوخوف يشعر اليوم بالجوع، لأنه لم يتناول حصته على الفطور، ولأنه التهم كل شيء بارداً. ولكي لا يتذمر كرشه، ولا يطلب الطعام، لم يعد يفكر بالمعسكر، بل راح يفكر كيف سيكتب الرسالة إلى البيت قريباً.

مر الطابور بجوار المنشرة، التي بنيت بأيدي المعتقلين، وبجوار الحي السكني (المعتقلون أيضاً هم من نصب العنابر، لكن الأحرار هم قاطنوها)، وبالقرب من النادي الجديد (وهذا أيضاً بناه المعتقلون من الأساس، وحتى الزخرفة الجدارية، بينما الأحرار هم من يشاهد الأفلام السينمائية فيه)، وخرج الطابور إلى السهب، في مواجهة الريح مباشرة وفي مواجهة الفجر،

الآخذ بالاحمرار. كان الثلج الأبيض العاري يرقد عالياً، على اليسار و اليمين، و لم يكن ثمة شجيرة واحدة في السهب كله.

لقد بدأ عام جديد، عام واحد وخمسين، وفيه يحق لشوخوف أن يكتب رسالتين. الرسالة الأخيرة بعث بها في تموز،وتلقى الرد عليها في تشرين الأول. أما في أوست إيجما فكان النظام مختلفاً، وبوسعك أن تكتب حتى كل شهر. لكن ماذا يمكن أن تكتب في الرسالة؟ لم يكن شوخوف يكتب هناك أكثر مما يكتب الآن.

غادر شوخوف البيت في الثالث والعشرين من حزيران من عام واحد وأربعين. فيوم الأحد جاء الناس من بولومينا. وصل خبر الحرب عن طريق مركز البريد، وفي تيمغينيوفو لم يكن لدى أحد جهاز راديو، قبل الحرب. أما الآن فيكتبون أن المذياع أصبح يصخب في كل عزبة، وهو سلكي.

الكتابة الآن كمن يلقي البحص في حفرة عميقة راكدة، كل ما يقع فيها ويغرق، يذهب دون صدى، فلا يمكن أن تكتب في أي معسكر أنت، ولا كيف هو رئيس مجموعتك، أندريه براكوفيفيتش تيورين، الآن يمكن أن تجد ما تتحدث به مع كيليفيس اللاتفي، أكثر مما تتحدث به مع ذويك.

وهم بدورهم يكتبون مرتين في العام، لكنك لا تفهم حياتهم. فرئيس الكلخوز جديد، لكنه يتجدد كل عام، إن رؤساء الكلخوز لا يبقون في هذا المنصب أكثر من عام، والكلخوز وسعوه، لكن سبق أن وسعوه في الماضي، ثم عادوا فجزأوه. وأيضاً من لا ينفذ أيام العمل المطلوبة تقلص مساحة حاكورته حتى ألف وخمسمائة متر، لا بل إن البعض يحرم من الحاكورة بشكل يكاد يكون كاملاً. وفي ذات مرة كتبت له

جدته عن صدور قانون يقضي بمحاكمة كل من لم ينفذ أيام العمل المطلوبة، وزجه في السجن، لكن ذلك القانون ظل حبراً على ورق.

إن ما لم يفهمه شوخوف هو ما كتبته زوجته عن أن أحداً لم ينتسب إلى الكلخوز، منذ اندلاع الحرب. فالشباب كلهم، والفتيات بدورهن، يتهربون، كل على طريقته، لكنهم عن بكرة أبيهم يرحلون، إما إلى المصنع في المدينة، أو إلى ورشات استخراج الفحم النباتي. أما الرجال فإن نصفهم لم يعد من الحرب، وحتى أولئك الذين عادوا، لم ينضموا إلى الكلخوز: بل يعيشون في البيت، ولا يعملون في الكلخوز. وهكذا فلم يبق في الكلخوز من الرجال سوى رئيس المجموعة زاخار فاسيليتش والنجار تيخون، وهو في الرابعة والثمانين، وتزوج منذ عهد قريب، ولديه أولاد الآن. إن من يجر الكلخوز هن تلك النسوة، اللواتي سقن إليه، منذ عام ثلاثين، وما إن يصبحن عاجزات عن العمل، حتى يفطس الكلخوز.

هذا بالذات ما لم يفهمه شوخوف أبداً: يعيشون في البيت، ولا يعملون في الكلخوز. لقد رأى شوخوف حياة الملاك الفرديين، ورأى حياة التعاونية، لكن أن لا يعمل الرجال في قراهم، مسقط رأسهم، هذا ما لا يستطيع قبوله. هل هو نوع من العمل الموسمي؟ طيب وماذا عن حصد الحشائش؟.

وردت زوجته أنهم تخلوا عن العمل الموسمي من زمان. فلم يعودوا يمارسون حرفة النجارة، التي اشتهرت بها ناحيتهم. ولا يجدلون القفف والسلال، من الصفصاف،فلم يعد أحد بحاجة إليها الآن. لكن هناك حرفة وحيدة، جديدة، ومرحة هي رسم السجاد بالألوان. لقد جلب أحدهم من الحرب هذا القالب

الجديد، ومنذ ذلك الحين راح الرسم ينتشر ويزداد، وباستمرار يتفاقم عدد هؤلاء الصباغين الحاذقين: لا ينتسبون إلى أي مكان، ولا يعملون في أي مكان، صحيح أنهم يساعدون الكلخوز شهراً واحداً، وبالذات في حصاد الحشائش، وجني المحصول، وبالمقابل فإن الكلخوز يمنح كلاً منهم وثيقة، مفادها أن الكلخوزي الفلاني حر في مزاولة عمله خلال الأحد عشر شهراً الباقية. وليس عليه أية التزامات تجاه الكلخوز. فتراهم يطوفون أرجاء البلاد، حتى أنهم يسافرون بالطائرات، توفيراً للوقت، أما النقود فيغرفون منها آلافاً كثيرة. وفي كل مكان يرسمون السجاد: لقاء خمسين روبلاً يرسمون لك السجادة التي تريد على أية ملحفة عتيقة، تعطيها لهم، التي لا حاجة لك بها، ويقال إن رسم سجادة كهذه يستغرق ساعة واحدة، لا أكثر، والأمل يحدو زوجته كثيراً في أن لا يخطو إيفان، خطوة واحدة نحو الكلخوز، وأن يصبح رساماً من هذا النوع. وحينذاك سوف ينتشلون أنفسهم من الفقر، الذي تتخبط هي فيه، ويرسلون الأولاد إلى المعهد الفني، ويستبدلون بعزبتهم المنخورة عزبة جديدة. جميع الرسامين يبنون لأنفسهم بيوتاً جديدة، وقرب السكة الحديدية أصبح سعر البيت لا خمسة آلاف، كما في الماضي، بل خمسة وعشرين ألفاً.

وعلى الرغم من أن ما بقي لشوخوف في المعتقل ليس بالقليل، هذا الشتاء والصيف، ثم الشتاء والصيف اللاحقان، فإن هذا السجاد قد آلمه. إن ذلك سيكون العمل المناسب له، إذا ما حرم من حقوقه أو نفي. عندها طلب من زوجته أن تصف له- كيف سيكون رساماً، وهو الذي لم يرسم في حياته؟ وما هذا السجاد العجيب، ماذا يرسم عليه؟ فردت

زوجته أن الغبي وحده هو الذي لا يستطيع رسمه: ضع القالب، وادهن بالفرشاة، من خلال الثقوب. والسجاد ثلاثة أنواع: سجاد "ترويكا" وعليه صورة ضابط هوسار، يمتطي عربة، تجرها ثلاثة جياد مطهمة، والنوع الثاني هو سجاد "الوعل"، أما الثالث فهو تقليد للسجاد الفارسي. ولا توجد أية رسوم أخرى، لكن على هذه يقول لك الجميع في طول البلاد وعرضها: شكراً، ويتخاطفونها، لأن السجادة الحقيقية تساوي لا خمسين روبلاً، بل الآلاف.

كم يود شوخوف أن ينظر إلى هذا السجاد، ولو بعين واحدة...

أنست حياة المعتقلات والسجون إيفان دينيسوفيتش التخطيط ليوم غد، وللعام القادم، والتفكير بكيفية إطعام أسرته. القيادة تفكر بذلك كله، بدلاً عنه- ويبدو أن ذلك أسهل. لكن كيف سيكون الأمر عندما يطلق سراحه؟...

يرى شوخوف من قصص سائقي الشاحنات والبلدوزرات الأحرار أن الطريق المستقيم قد سُدَّ في وجه الناس، لكن الناس حاضرو البديهة فهم يقومون بحركة التفاف، وهذا ما يكفل بقاءهم أحياء.

لو كان شوخوف يريد هذا الالتفاف، إذن لاستطاع شق طريقه. فالراتب على الأرجح سهل وناري. ولاشك أنه من المؤلم أن يتخلف عن زملائه في القرية... لكن إيفان دينيسوفيتش، في قرارة نفسه، لا يريد العمل في هذا السجاد. فهذا العمل يتطلب الوقاحة، وقلة الحياء، ورشو الشرطة. أما شوخوف فهو يدعس الأرض على مدى أربعين عاماً، وقد

فقد نصف أسنانه، وأصبح أصلع الرأس، و لم يسبق له أن أعطى أحداً، أو أخذ من أحد، وفي المعسكر لم يتعلم ذلك.

النقود السهلة لا وزن لها، وليس ثمة من ثقة لديك أنك سوف تكسبها. لقد أصاب القدماء بقولهم: الشيء الذي لم تسدد ثمنه يستحيل عليك حمله.

لا تزال يدا شوخوف قويتين، فهل يعقل أنه لن يعثر على عمل مستقيم، عندما يصبح حراً.

لكن هل سيطلقون سراحه يا ترى؟ أولن يضيفوا له عشرات أخرى، دون أي سبب؟...

في هذا الوقت وصل الطابور، وتوقف أمام مخفر منطقة المشروع الشاسعة. وقبل ذلك كان حارسان يرتديان المعاطف الصوفية، قد انفصلا عن زاوية المنطقة، ومشيا عبر السهب، باتجاه برجيهما البعيدين. ولا يسمح بالعبور إلى الداخل إلا بعد أن يأخذ الحراس أماكنهم في كل الأبراج. مشى رئيس الحرس، متأبطاً البندقية الآلية، إلى المخفر. ومن المخفر كان الدخان لا يكف يتصاعد من المدخنة: فالحارس الحر يجلس الليل بطوله هناك، لكي لا يسرقوا الأخشاب، أو الاسمنت.

بشكل مائل، عبر البوابة الشائكة، وعبر كل منطقة المشروع، وعبر الأسلاك الشائكة البعيدة، الواقعة على الجانب الآخر- تنهض الشمس من خدرها كبيرة، حمراء، كما في السديم. وبالقرب من شوخوف يقف أليوشكا، ينظر إلى الشمس مسروراً، ويفتر ثغره عن ابتسامة. خداه غائران، يعيش على حصته فقط، لا يكسب شيئاً من أي عمل – فلماذا هذا السرور؟ في أيام الآحاد لا يكف عن التهامس مع المعمدانيين الآخرين. إن المعسكرات لا تؤثر فيهم، إلا كما يؤثر الماء في

الإوز. كل منهم عوقب بخمسة وعشرين عاماً على هذا الإيمان المعمداني — فهل يعقل أنهم يعتقدون أنهم بهذا قادرون على إرغام الناس على الارتداد عن دينهم؟.

كانت قطعة القماش — كمامة المسير- قد تبللت كلها من التنفس، أثناء الطريق، وفي بعض الأماكن كان الصقيع قد لسعها، فاكتست بقشرة رقيقة من الجليد. أنزلها شوخوف عن وجهه إلى عنقه، ووقف، وقد أدار ظهره للريح. لم يتأذ كثيراً في أي مكان، فقط يداه تجمدتا في القفازين التالفين، كما تخدرت أصابع قدمه اليسرى، ففردة الجزمة اليسارية تالفة، وقد خيطت للمرة الثانية.

كان يشعر بالألم والوجع من أسفل ظهره حتى كتفيه، فكيف سيعمل؟.

وإذ التفت، وقعت عيناه على رئيس المجموعة، الذي يسير في الخمسة الخلفية. إن رئيس المجموعة ضخم الكتفين، ثم إن وجهه عريض. إنه لم يكن ينعم على مرؤوسيه بالابتسامات، لكنه يطعمهم بشكل مقبول، ويحرص على أن يحصلوا على الحصص الكبيرة. إنه مسجون للمرة الثانية، فهو ابن الغولاغ، يعرف عادة المعسكر جيداً.

إن رئيس المجموعة في المعسكر هو كل شيء: فالرئيس الجيد يهبك الحياة ثانية، أما الرئيس السيئ فيدفعك إلى حتفك. كان شوخوف يعرف أندريه براكوفيفيتش من أوست إيجما، لكنه لم يكن في مجموعته آنذاك.

نقل المحكومون بالمادة الثامنة والخمسين من المعسكر المشترك في أوست إيجما إلى معسكر الأشغال الشاقة هنا، قام تيورين

بأخذه. لا علاقة لشوخوف بقائـد المعسكر، ولا بقسم التخطيط الإنتاجي، ولا بالمشرفين على العمل ولا بالمهندسين، ففي كل مكان يذود رئيسه عنه، إن لـدى رئيسه صدراً فولاذياً. وبالمقابل يكفي أن يهز حاجبه، أو يشير بإصبعه، حتى ينطلق شوخوف كالسهم للتنفيذ. بوسعك أن تخدع كل من يعن على بالك في المعسكر إلا أندريه براكوفيتش، فإياك أن تخدعه، فتبقى على قيد الحياة. بود شوخوف أن يسأل رئيس المجموعة هل سيعملون اليوم حيث عملوا البارحة، أم أنهم ينتقلون إلى مكان جديد، لكنه يخاف قطع فكرته الرفيعة. للتو ألقى مشروع "الضاحية الاشتراكية" عن كاهله، والآن يحمل هم نسبة الإنتاج فعليها تتوقف أيام الإطعام الخمسة التالية.

في وجه رئيس المجموعة بثور جدري كبيرة. إنه يقف في مواجهة الريح، دون تقطيب، فالجلد على وجهه كما لحاء شجر البلوط.

وفي الطابور يصفق المعتقلون بأيديهم، ويدبدبون، فالريح شريرة. لاشك أن الحراس أخذوا أماكنهم على الأبراج الستة كلها، ومع هذا لا يسمحون بدخول المنطقة. إنهم يبالغون في الحذر.

أخيراً! خرج رئيس الحرس مع المفتش من المخفر، ثم وقفا على جانبي البوابة، وفتحاها.

- اص- ط- فوا خمسة، خمسة! الأولى، الثانية.

وكما في العرض، بخطوة تكاد تكون منتظمة. المهم أن يدخلوا المنطقة، وهناك يعرف كل منهم عمله، ولا حاجة لمن يعلمه.

بعد المخفر مباشرة يقع كشك المكتب، بالقرب من المكتب يقف رئيس فرقة العمال، الذي يستدعي رؤساء المجموعات، لا بل إن هؤلاء يسيرون نحوه من تلقاء أنفسهم. إن دير، رئيس فرقة العمال، هو من المعتقلين، لكن السافل يعامل أبناء جلدته أسوأ من الكلاب.

إنها الثامنة وخمس دقائق (للتو أطلق قطار الطاقة صافرته)، فالقيادة تخشى أن يضيع المعتقلون الوقت سدى، وأن يتشتتوا طلباً للدفء- إن النهار أمام المعتقلين طويل، يكفي الوقت كله. البعض يعرج على المنطقة: وهنا يعثر على قطعة من الخشب، وعلى قطعة أخرى هناك، ستكون طعماً للنار في المدفأة. ثم يختبئون في الجحور.

أوعز تيورين لمساعده بافلو أن يرافقه إلى المكتب، وإلى هناك توجه قيصر. إن قيصر غني، يتلقى طردين في الشهر، ويوزع على أولي الحل والربط، ويعمل هذا السخيف في المكتب مساعداً للمسؤول عن معدلات العمل. أما الباقون من المجموعة ١٠٤ فللحال انعطفوا جانباً، ثم تفرقوا هنا وهناك.

أشرقت الشمس حمراء، سديمية، فوق المنطقة الخالية: حيث ألواح البيوت المسبقة الصنع مطمورة بالثلج وحيث بدىء بالبناء الحجري، ثم أُهمل بعد وضع أساسه، وهناك مقبض الحفارة المكسور،والجارف وكومة من خردة الحديد، والكثير من السواقي والخنادق والحفر المقلوبة، وورشات تصليح الآليات المعطلة، وعلى التلة تطالعك المحطة الكهرحرارية، وهي لا تزال في بداية الطابق الثاني.

اختبأ الجميع. وحدهم الحراس الستة يقفون في أبراجهم، وهناك حركة قرب المكتب. تلكم هي لحظتنا بالذات، فكم

هدد كبير رؤساء فرق العمال بإبلاغ الأوامر لكل المجموعات، منذ المساء، لكن ذلك لم يتم، لأن كل شيء ينقلب لديهم رأساً على عقب بين عشية وضحاها.

لكن اللحظة لحظتنا. فبينما تنكب القيادة على دراسة الأمر، بوسعك أن تلوذ بمكان دافئ، وأن تجلس وتأخذ قسطاً من الراحة، فالعمل الذي يقصم الظهر، أمامك. وقد يحالفك الحظ، فتجلس قرب المدفأة، حيث بوسعك أن تقلب أربطة قدميك، وتدفئها قليلاً، عندها ستبقى قدماك دافئتين طيلة النهار. وحتى بدون مدفأة يبقى الأمر جيداً.

دخلت المجموعة مئة وأربعة صالة واسعة في ورشة الصيانة، وهي مغطاة بالزجاج منذ الخريف، حيث تقوم المجموعة ٣٨ بصب البلاط البيتوني. بعض البلاط لا يزال في القوالب، بينما البعض الآخر في صفوف عمودية، وهناك شباك من هياكل التسليح. السقف عال، والأرضية ترابية. صحيح أن الدفء، بمعنى الدفء، غير موجود هنا، ومع هذا فهذه الصالة تدفأ، ومن أجل تدفئتها لا يبخل بالفحم: ليس لكي يتدفأ الناس، بل لكي يكون البلاط أفضل تماسكاً. حتى إن هناك ميزان حرارة، وفي أيام الآحاد، يضرم المستخدم الحر النار هنا، حتى ولو لم يأت المعتقلون من المعسكر إلى العمل لسبب ما.

وبالطبع فإن المجموعة الثامنة والثلاثين لا تسمح للغرباء بالاقتراب من الفرن، فهي نفسها تحلقت من حوله، وراح أفرادها ينشفون أربطتهم. طيب، لسوف نجلس هاهنا، في الزاوية. بسيطة.

وضع شوخوف مؤخرة بنطاله القطني، الذي سبق له أن جلس في الكثير من الأماكن، على طرف القالب الخشبي، بينما

أسند ظهره إلى الجدار. وحين انحنى قليلاً، توتر معطفه وسترته، وأحس في الجانب الأيسر من الصدر، عند القلب بشيء ما قاسٍ، يضغط عليه – من الجيب الداخلي- إنه زاوية قطعة الخبز، ذلك النصف من الحصة الصباحية، الذي أخذه ليتناوله على الغداء. باستمرار كان يأخذ معه مثل هذه الكمية إلى العمل، و لم يكن يمسها قبل الغداء. لكنه كان يلتهم النصف الآخر على الفطور، أما اليوم فلم يأكل شيئاً، وأدرك شوخوف أنه لم يوفر شيئاً: فقد شعر برغبة لا تقاوم في تناول هذه الحصة في الدفء. كان الغداء لا يزال بعيداً- خمس ساعات طويلة.

و لم يلبث الوجع الذي بدأ في الظهر، أن انتقل الآن إلى الساقين. لكم أصبحت ساقاه ضعيفتين. آه لو يستطيع الاقتراب من المدفأة...

وضع شوخوف قفازيه على ركبتيه، وفك أزرار معطفه، ثم حل كمامة السير، المتجمدة عن عنقه، وخبأها في جيبه، بعد أن طواها عدة مرات. عندها سحب قطعة الخبز وهي في قماشة بيضاء، وأمسك بها، بحيث لا تسقط منها أية فتاتة على الأرض، ثم راح يقضم منها القطع الصغيرة، ويلوكها. لقد حمل الخبز تحت المعطف والسترة، ودفأه بجسمه، لذا فلم يتجمد أبداً.

في المعسكرات غالباً ما يتذكر شوخوف كيف كانوا يأكلون في القرية، في الماضي: البطاطا- ملء مقلاة كاملة، والعصيدة — ملء طنجرة، وفي الماضي البعيد، قبل الكلخوز، كان اللحم يقدم قطعاً كبيرة. والحليب كانوا يشربونه، حتى ليكاد الكرش ينفجر. وفي المعسكرات أدرك شوخوف أن ذلك كان خطأ. يجب أن نأكل بحيث يتركز التفكير كله في

الطعام وحده. كما هو الحال الآن، وهو يقضم هذه القطع الصغيرة، ويهرسها بلسانه، ويحركها خداك، فتشعر بلذة هذا الخبز الأسود الرطب. ما الذي أكله شوخوف خلال ثمانية أعوام؟ وهذا التاسع، لا شيء. وكيف يقلبه؟ يا سلام.

على هذا النحو كان شوخوف مشغولاً بغراماته المائتين، وغير بعيد عنه، في الجهة نفسها، وجدت المجموعة ١٠٤ كلها ملاذاً لها.

كان ثمة إستونيان، لكأنهما أخوان شقيقان، يجلسان على بلاطة بيتونية منخفضة، يدخنان معاً بالتناوب، نصف سيجارة، من مبسم واحد. وكان هذان الإستونيان كلاهما أبيضين، وكلاهما طويلين، كلاهما نحيلين، وكلاهما بأنفين بلرزين، وعيون كبيرة. كانا متلازمين دائماً، لكأن أحدهما لا يجد الهواء الأزرق الكافي في غياب الآخر. ولم يكن رئيس المجموعة يفرق بينهما. ثم إنهما كانا يأكلان كل شيء مناصفة، وينامان في سرير علوي واحد. وحين يقفان في الطابور، أو ينتظران في الاجتماع الصباحي، أو يأويان إلى الفراش، كانا لا يكفان عن الحديث فيما بينهما، دائماً بصوت خافت، وبكل تأن. علماً أنهما لم يكونا أخوين، ولقد تعرفا على بعض هاهنا في المجموعة ١٠٤. كان أحدهما - كما قيل — صياد سمك من الساحل، أما الآخر فقد اصطحبه والداه معهما إلى السويد، وهو طفل صغير، بعيد تأسيس السوفيتات. وحين ترعرع، قرر الغبي العودة إلى الوطن لمتابعة دراسته في المعهد، فاعتقلوه فوراً.

يقال إن القومية لا تعني شيئاً، أية قومية لا تخلو من السيئين. أما الإستونيون، فكم رأى شوخوف منهم — فإنه لم يصادف بينهم أناساً سيئين.

كان الجميع جلوساً – البعض على البلاط، والبعض على القوالب وآخرون على الأرض تماماً. لم تكن لديهم رغبة في الحديث منذ الصباح، فلاذ كل منهم بالصمت، مستسلماً لأفكاره. وكان فيتيوكوف، ابن أوى، قد جمع الكثير من أعقاب السجائر (فهو لا يتورع عن انتشالها من المبصقة)، وهاهو الآن يفتحها، ويضع التبغ غير المحترق في ورقة واحدة. ترك فيتيوكوف وراءه ثلاثة أولاد، لكن ما إن زج به، حتى تخلوا عنه جميعهم، وتزوجت زوجته، وهكذا لم يبق لديه من يمد له يد العون.

نظر بوينوفسكي إلى فيتيوكوف شزراً، ثم همهم:

– ما بالك تجمع كل ما تصادف من سموم؟ لسوف تصاب شفتاك بالزهري! ارمها!.

اعتاد بونيوفسكي، وهو الضابط البحري، على إصدار الأوامر، وهو يتحدث إلى الجميع بصيغة الأمر.

لكن لا شيء يربط فيتيوكوف ببوينوفسكي، الذي لا يتلقى الطرود بدوره، فأطلق من فمه شبه الفارغ، ابتسامة ساخرة، لا تبشر بالخير، وقال:

– انتظر، إن مكثت هنا ثمانية أعوام، سوف تجمع هذا بدورك.

هذا صحيح، فلقد عرف المعسكر أناساً أعز نفساً من هذا الضابط البحري....

- ماذا، ماذا؟_ لم يفهم سينكا كليفشين، قليل السمع، فقد ظن أن الحديث يدور حول احتجاج بوينوفسكي أثناء الاجتماع الصباحي، وأردف وهو يهز رأسه أسفاً: ما كان عليه أن يتذمر، إذن لما جر هذا على نفسه.

إن سينكا كليفشين هادىء مسكين. لقد انفجرت أذنه عام واحد وأربعين، بعدها وقع في الأسر، وهرب ثلاث مرات، وفي كل مرة كانوا يمسكون به، وزجوا به في معتقل بوهينفالد. وفي بوهينفالد تمكن بأعجوبة من البقاء حياً، وهو الآن يقضي محكوميته بكل هدوء. فإن تذمرت، كما يقول، ضعت.

هذا صحيح، تأوه وانحن، أما إذا ما عاندت فسوف تتحطم.
غمر ألكسي وجهه براحتيه، وهو صامت. إنه يتلو صلواته.
التهم شوخوف حصته، لكنه أبقى على القشرة العلوية، شبه الدائرية، لأنه لا يمكن لأية ملعقة أن تجاري الخبز في تنظيف الصحن من العصيدة، حتى اللمعان. ولقد أعاد هذه القشرة إلى القماشة البيضاء، ولفها للغداء، ثم دس القماشة في جيبه الداخلي، تحت السترة، وزرر معطفه خشية البرد، وأصبح الآن جاهزاً للذهاب إلى العمل، لكن من الأفضل أن يبطئوا قليلاً.

نهضت المجموعة الثامنة والثلاثون، وتوزع أفرادها: البعض باتجاه الجبالة، والبعض الآخر لجلب الماء، وآخرون باتجاه هياكل التسليح. لم يأت تيورين، إلى مجموعته ولا مساعده بافلو. وعلى الرغم من أن المئة وأربعة لم تجلس أكثر من عشرين دقيقة، علماً أن يوم العمل شتائي قصير، يستمر حتى السادسة، فقد شعر الجميع بالسعادة، إذ خيل إليهم أن المساء لم يعد بعيداً.

- للأسف أن الزوابع الثلجية لم تحدث من زمان — شكا كليدينيس، اللاتفي، ذو الوجه الأحمر المكتنز- طيلة الشتاء لم تحدث زوبعة واحدة، فأي شتاء هذا؟.

- نعم... الزوابع... الزوابع... أعربت المجموعة عن أسفها.

حين تهب الزوابع هنا فإن الأمر لا يقتصر على أنهم لا يسوقونهم إلى العمل، بل إنهم يخافون حتى من الخروج بهم إلى المطعم: فإذا لم تمد الحبل من العنبر إلى المطعم، تضيع. ويتجمد المعتقل في الثلج، وتلتهمه الكلاب. ثم قد يهرب. لقد جرت حوادث من هذا النوع. فالثلج في الزوبعة ندف، ندف، لكنه يتجمع على الكثيب وكأن أحداً يضغطه، وعلى مثل هذا الكثيب، وعبر الأسلاك الملفوفة، كانوا يهربون. لكن ليس بعيداً.

والواقع أنه لا فائدة من الزوبعة أبداً: فالمعتقلون يجلسون وراء الأقفال، والفحم يتأخر، والدفء يتسرب إلى خارج البراكة، والدقيق لا يصل المعسكر في الوقت المحدد، وبالتالي لا يوجد خبز، ثم إن الطباخين يتأخرون في تجهيز الطعام، ومهما طال أمد الزوبعة- ثلاثة أيام، أسبوعاً، فإن هذه الأيام تحسب أيام عطلة، يساق المعتقلون إلى العمل في أيام الآحاد للتعويض عنها.

ومع ذلك فإن المعتقلين يحبون الزوبعة، وينتظرونها بفارغ الصبر. فما إن تعصف الريح بقوة، حتى يرفع الجميع نظرهم إلى السماء، بانتظار الفرج- سقوط الثلج.

لكن الزوبعة الحقيقية لا يمكن أن تعصف أبداً بسبب الريح الثلجية.

لقد تسلل أحدهم إلى فرن المجموعة- ٣٨طلباً للدفء، لكنهم ردوه من هناك على أعقابه.

وهنا دخل تيورين إلى الصالة. كان متجهماً، وأدرك أفراد مجموعته أن عليهم القيام بعمل ما، وعلى جناح السرعة. —

طيب- قال تيورين، وهو يلتفت، هل الجميع هنا يا مئة وأربعة؟.

ودون إجراء أي تفقد، أو إحصاء، لأن أحداً من مجموعة تيورين لا يمكن أن يذهب إلى أي مكان، راح يوزع المهام على جناح السرعة. فقد أرسل الإستونيين مع كليفشين وغوبتشيك لنقل صندوق الاسمنت المائع الكبير من مكان قريب إلى المحطة الكهرحرارية. ومن هذا اتضح أن المجموعة سوف تنتقل إلى مبنى المحطة، غير المكتمل، والذي توقف العمل فيه، في نهاية الخريف. كما أرسل اثنين آخرين إلى ورشة العدد، حيث كان بافلو قد سبقهما لاستلام العدة. ثم كلف أربعة بتنظيف الثلج قرب مبنى المحطة، وعند مدخل صالة الآليات، وفي الصالة نفسها، وعلى السلالم. كما أمر اثنين بإشعال الفرن في الصالة نفسها- بالفحم- وتقطيع ألواح الخشب وتكسيرها، وطلب من أحدهم نقل الاسمنت إلى هناك بالزحافة، ومن اثنين جلب الماء، ومن اثنين آخرين جلب الرمل، كما كلف آخر بتنظيف الرمل من الثلج، وكسره بالعتلة.

وبعد هذا كله بقي شوخوف وكليغيس، وهما أول معلمين في المجموعة، لكن هاهو ذا رئيس المجموعة يناديهما ويقول:

- إليكم الأمر يا أولاد! — علماً أنه لم يكن أعمر منهما، لكنه اعتاد أن يخاطب الجميع ب"يا أولاد"، بعد الغداء سوف تبنيان الجدران بالأحجار الإسمنتية في الطابق الثاني. هناك حيث توقفت المجموعة السادسة عن العمل في الخريف. أما الآن فلابد من تدفئة قاعة الآليات. هناك ثلاث نوافذ كبيرة، يجب أن تسد بشيء ما، قبل كل شيء لسوف أعطيكما من

يساعدكما في ذلك، لكن فكرا بما ذا يمكن أن تسد، لسوف تكون قاعة الآليات مكاناً للجبل والتسخين. فإذا لم ندفئها تجمدنا كالكلاب، هل فهمتما؟.

ولربما كان سيضيف أشياء أخرى، لولا أن جاء غوبتشيك، وهو فتى في حوالي السادسة عشرة، مورد الخدين، كما الخنوص، يشكو من أن المجموعة الأخرى رفضت إعطاءهم صندوق المحلول، وبدأت العراك، فانطلق تيورين إلى هناك لا يلوي على شيء.

على الرغم من صعوبة الشروع بيوم العمل في مثل هذا الصقيع، فإن من الأهمية بمكان تجاوز هذه البداية.

تبادل شوخوف وكيلديفس النظر. لقد سبق لهما أن عملا معاً أكثر من مرة، وكان كل منهما يحترم الآخر كنجار وبناء. لم يكن بالأمر السهل العثور في الثلج العاري على ما يمكن أن تسد به النوافذ، لكن كيلديفس قال:

- فانيا! أعرف مكاناً، بالقرب من البيوت المسبقة الصنع، حيث توجد لفافة من الورق القطراني. لقد خبأتها بنفسي. فهل تذهب؟.

على الرغم من أنه لا تفي، كان كيلديفس يتقن الروسية، كما يتقن لغته الأم، فبالقرب منهم كانت توجد قرية يقطنها أتباع المذهب القديم[1] فتعلم الروسية منذ نعومة أظفاره. لم يمض عليه في حياة المعسكرات سوى عامين، لكنه يفهم كل

---

[1] أي المذهب المعارض للإصلاحات في الكنيسة الروسية في القرن السابع عشر، فقد تمسك أتباع هذا المذهب بالتعاليم الكنسية القديمة، وشقوا عصا الطاعة على الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية، وتعرضوا للاضطهاد والقمع حتى عام ١٩٠٦/ المترجم.

شيء: بلين العريكة لا تحصل على ما تريد. إن اسم كليديغس هو، يان، أما شوخوف فيناديه باسم فانيا.

قررا الذهاب لجلب الورق القطراني. لكن شوخوف أسرع، قبل ذلك إلى الجناح قيد البناء المجاور، المخصص لصيانة الآليات، كي يأخذ مسيعته[٢]. فالمسيعة في غاية الأهمية للبنَّاء، إذا ما اعتادت عليها يده، لكن النظام في كل مشروع بناء ينص على تسلم العدة في الصباح وتسليمها عند المساء. وأي عدة ستكون من نصيبك غداً، فأنت وحظك. لكن شوخوف خدع المسؤول عن استلام العدة، وخبأ أفضل مسيعة. أما الآن فقد أزاح حجرة، ودس أصابعه في شق، وأخرجها من مكمنها.

خرج شوخوف وكيلديغس من قاعة صيانة الآليات، وتوجها ناحية البيوت مسبقة الصنع. كان البخار الكثيف يخرج من تنفسها. كانت الشمس قد أصبحت عالية، ولكنها بدون أشعة، كما الضباب، وعلى جانبي الشمس ارتفعت -أليست أعمدة؟- سأل شوخوف كيلديفس، وهو يشير برأسه.

-إن الأعمدة لا تضايقنا- لوح كيلديفس بيده، وضحك - المهم أن لا تمد الأسلاك الشائكة بين العمود والعمود، هذا هو المهم. إن كيلديفس يحب المزاح، ولهذا السبب فإن المجموعة كلها تكن له الحب. أما عن احترام اللاتفيين في المعسكر له، فحدث ولا حرج. والحقيقة أن كيلديفس يتغذى بشكل طبيعي، إذ يرده طردان شهرياً، فتراه مورد الخدين، كأنه لا يقيم في معسكر أبداً فمن البديهي أن يكون مُزاحاً.

---

[٢] المسيعة: حديدة أو خشبة ملساء يطين بها. / المترجم

إن منطقة المشروع كبيرة، ويمر وقت طويل قبل أن تقطعها. وفي الطريق صادفا الشباب من المجموعة اثنتين وثمانين. من جديد أجبروهم على فتح الحفر. الحفر يجب أن تكون صغيرة، خمسين في خمسين، والعمق خمسون أيضاً. لكن الأرض هنا، حتى صيفاً، صلبة كما الحجر، أما الآن فقد زاد الصقيع في الطين بلة، جرب أن تفتتها. يحفرونها بالفأس، لكن الفأس تتزحلق، فيتطاير الشرر وحده، أما التربة نفسها فصامدة. يقف الشباب كل فوق حفرته، وهم يتلفتون، فلا مكان يتدفأون فيه، ولا يسمح لهم بالابتعاد. ولا يبقى أمامهم إلا الحفر، فبالحفر وحده، يكمن الدفء. وإذ رأى شوخوف بينهم أحد معارفه، وهو فياتشي[٣]، قال لهم ناصحاً:

- اسمعوا أيها الحفارون، لو انكم تشعلون النار فوق كل حفرة، إذن لذابت التربة.

ورد الفياتشي بحسرة:

- لا يسمحون، لا يعطوننا الأخشاب.

- يجب أن تعثروا عليها.

أما كيلديغس فقد اكتفى بأن بصق.

- ألا قل لي يا فانيا، لو كانت القيادة ذكية فهل كانت لترغم الناس على حفر الأرض بالفؤوس في هذا الصقيع؟.

بعدها أطلق كيلديفس عدة شتائم غير مميزة، ثم لاذ بالصمت، ففي الصقيع يصعب الاستطراد في الكلام. راحا يسيران ويسيران، إلى أن اقتربا من المكان، حيث دفنت ألواح البيوت مسبقة الصنع تحت الثلج.

---

[٣]نسبة إلى اتحاد القبائل السلافية- الشرقية- التي سكنت المناطق الواقعة في أعالي ووسط نهر أوكا.

إن شوخوف يحب العمل مع كيلديفس، لكن السيء فيه أنه لا يدخن، وطروده تأتي خالية من التبغ.

فعلاً إن كيلديفس قوي الملاحظة: فبعد أن رفعا لوحاً، فآخر، عثرا تحتهما على لفافة الورق القطراني المنشودة.

أخرجاها، والآن كيف يحملانها؟ قد يرونهما من على الأبراج، وليروهما، فمهمة الحراس تنحصر فقط في الحيلولة دون فرار المعتقلين، أما داخل منطقة العمل فليفعلوا ما يحلو لهم، حتى ولو حطموا كل الألواح هباء منثوراً. ولو صادفهما مراقب المعسكر، هذا لا يهم أيضاً: فهو نفسه يتطلع إلى ما يمكن أن يستفاد منه. إن جميع العمال لا يهتمون بهذه البيوت المسبقة الصنع أبداً. وكذلك رؤساء المجموعات.

إن من يحرص عليها هما المشرفان على العمل، أحدهما حر والآخر من المعتقلين، بالإضافة إلى شكورا باتينكا الطويل والنحيف. إن شكور باتينكا شخص نكرة، معتقل عادي، لكنه مجبول على الشر، يخصونه ببذلة دورية فقط لأنه يحرس البيوت المسبقة الصنع من المعتقلين، ويمنعهم من سرقتها. إن شكور باتينكا سيقبض عليهما على الأرجح في المقطع المكشوف.

واقترح شوخوف:

- اسمع يا فانيا، لا يجوز أن نحملها منبسطة، دعنا نحتضنها وهي واقفة، ونحملها على هذا النحو، ساترين إياها بجسمينا. فلن يكون بوسعه تمييزها من بعيد.

.إن حمل اللفافة غير مريح، ولذا فقد حصراها بينهما، كما لو أنها شخص ثالث، وانطلقا. ومن يراهما من بعيد يعتقد أنهما يسيران متلاصقين.

وقال شوخوف:

- فيما بعد سيرى المشرف على العمل هذا الورق على النوافذ، فيعرف كل شيء.

ورد كيلديغس بدهشة:

- وما دخلنا نحن؟ حين جئنا إلى مبنى المحطة، وجدنا النوافذ على هذا الشكل. فهل نمزقها؟.

- هذا صحيح.

لقد تجمدت أصابع شوخوف في قفازيه الباليين، فلم يعد يحس بها. ثم إن الجزمة اليسارية تعذبه، والجزمة هي الأهم، فاليدان تدب فيهما الحياة من خلال العمل.

اجتازا الأرض البكر الثلجية، ووصلا إلى الطريق، الذي تسلكه الزحافات من ورشة العدة إلى المحطة، يبدو أنهم قد جلبوا الاسمنت.

تقع المحطة على تلة، ومن خلفها تنتهي المنطقة. منذ عهد بعيد لم يأت أحد إلى المحطة، فكانت كل الدروب إليها مغطاة بالثلج بشكل مستو، ويبدو طريق الزحافات واضحاً جلياً، والدرب جديداً،وآثار الأقدام عميقة، لقد مرت جماعتنا. وهي تنظف الآن بالرفوش الخشبية حول المحطة والطريق للآلة.

لو أن الرافعة تعمل في المحطة، لكن المحرك احترق، ومنذ ذلك الحين لم يتم إصلاحه، وهذا يعني العودة إلى حمل كل شيء إلى الطابق الثاني، الاسمنت المائع وأحجار البناء.

على مدى شهرين ظلت المحطة قائمة كما الهيكل العظمي الرمادي وسط الثلج، وقد غادرها الجميع. وها قد جاءت ال١٠٤. الغريب أن أفرادها لا يزالون أحياء. فالبطون خاوية، وقد شدت الأحزمة التاربولينية، والبرد قارس جداً، وليس ثمة

من مصدر للدفء، ولا حتى بصيص نار. ومع هذا فقد جاءت ال١٠٤، ودبت فيها الحياة من جديد.

لدى مدخل قاعة الآلات مباشرة تحطم صندوق الاسمنت. فهو صندوق عتيق بال، ولم يكن شوخوف يعتقد أنهم سيصلون به سليماً. راح رئيس المجموعة يطلق الشتائم، تمشياً مع النظام، لكنه يرى بوضوح أن الذنب في ذلك لا يقع على أحد.

وهنا يظهر شوخوف وكيليديغس، وهما يحملان الورق القطراني بينهما. سر رئيس المجموعة، وقرر إعادة توزيع المهام في الحال: على شوخوف أن يضع المدخنة للمدفأة، لكي تضرم النار على جناح السرعة. أما كيلديغس فكلف بإصلاح الصندوق، يساعده الإستونيان. أما سينكا كليفشين، هاك المطرقة وقطع الأخشاب الطويلة، لكي يتم تثبيت الورق القطراني عليها: فالورق أقل عرضاً من النافذة بمرتين.

لكن من أين تأخذ الأخشاب؟ لن يوافق المشرف على العمل على تقديم الخشب للتدفئة. التفت رئيس المجموعة، والتفت الجميع، ليس ثمة سوى مخرج واحد: نزع الخشبتين، الموضوعتين على جانبي السلم، المؤدي إلى الطابق الثاني، كنوع من الدرابزون. يمكن أن يسيروا بحذر، ولن يقعوا، وإلا فما العمل؟.

قد يتساءل المرء، لماذا يقصم المعتقل ظهره في المعسكر عشر سنوات؟. لا أريد العمل وكفى. جرجر النهار حتى حلول المساء، أما الليل فلك.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة، ولقد ابتكرت المجموعة لقطع دابر مثل هذه الأفكار. وهي ليست كالمجموعة التي نراها في

الحياة العادية، حيث لإيفان إيفانيتش راتبه المستقل، وحيث لبطرس بيتروفيتش راتبه المستقل. أما في المعسكر فالمجموعة هي جهاز يقوم فيه المعتقلون أنفسهم بدور القيادة في حث المعتقلين على العمل. الأمر هنا على هذا النحو: إما أن يحصل الجميع على وجبة إضافية، وإما أن يفطس الجميع. أنت لا تعمل أيها الوغد، أما أنا فسأبقى جائعاً بسببك؟ هذا لن يكون، فاعمل أيها الحقير.

وقد يحدث كما هو الحال الآن، أنك عاجز عن الاستقرار في مكانك. وسواء أردت، أم لا، عليك أن تقفز، أن تثب، أن تتقلب. إذا لم يتم تركيب المدفأة بعد ساعتين فسوف تكون عاقبتنا وخيمة.

لقد جلب بافلو أداة العمل وعدة أنابيب. صحيح أنه لا توجد أداة لقص الصفيح، لكن توجد مطرقة حدادة وبلطة، فتصرف.

و يضرب شوخوف القفازين ببعضهما، ثم يركب أنبوبين، بحيث يلتحم كل منهما بالآخر، ومن جديد يصفق بقفازيه، ثم يركب أنبوباً آخر. (أما المسيعة فقد خبأها في مكان قريب، صحيح أنه بين أفراد مجموعته، لكن يمكن أن يبدلوها. ثم إن كيلديغس هنا أيضاً).

ولكأن كل الأفكار مسحت من رأسه، و لم يعد الآن يتذكر شيئاً، أو يهتم بشيء، بل ينحصر تفكيره في كيفية تركيب أكواع الأنابيب، بحيث لا يتسرب الدخان منها، فقد أرسل غوبتشيك للبحث عن الأسلاك لتعليق أنبوب المدخنة، عند النافذة.

وثمة في الركن مدفأة قصيرة، ذات مدخنة من الطوب. ولها صفيحة حديدية من الأعلى، تُحمىٍّ فيذوب الرمل فوقها ويجف. أما ذلك الفرن فقد أُضرمت فيه النار، وراح الضابط البحري مع فيتيوكوف ينقلان الرمل إليه بالحمالات، إن نقل الحمالة لا يحتاج إلى الكثير من التفكير، ولذا فقد أوكل رئيس المجموعة هذا العمل لرئيسين سابقين، فلقد كان فيتيوكوف يعمل مديراً كبيراً في أحد المكاتب، وكانت لديه سيارته.

في الأيام الأولى راح فيتيوكوف يرفع ذيله على الضابط البحري، ويصرخ به، لكن الضابط وجه له لكمة، ذات مرة على أسنانه، ومنذ ذلك الحين تحسنت العلاقة بينهما.

اندفع الشباب إلى فرن الرمل طلباً للدفء، لكن رئيس المجموعة حذرهم:

- هيه، الآن سوف أدفئ أحدهم على جبينه، جهزوا كل شيء أولاً،

يكفي الكلب المضروب أن يرى السوط. الصقيع قاس، لكن الرئيس أقسى، من جديد تفرق الشباب، وذهب كل إلى عمله.

وسمع شوخوف الرئيس، وهو يقول لبافلو، بصوت خافت:

- أنت ابقَ هنا، كن حريصاً، علي أن أغلق مؤشر نسبة الإنتاج.

إن ما يتوقف على مؤشر النسبة أكبر مما يتوقف على العمل نفسه. ورئيس المجموعة الذكي هو ذاك الذي لا على العمل يركز، بل على مؤشر النسبة فهو مصدر طعامنا. وما لم ينفذ، برهن على أنه قد نفذ. وما يدفعون عليه القليل، حوله بحيث يصبح أغلى. وهذا ما يتطلب تحلي رئيس المجموعة بالعقل

الراجح، والاتفاق مع المشرفين على مؤشر النسبة، فهؤلاء يجب أن تدفع لهم أيضاً.

وفي الواقع من يحتاج لهذه النسب؟ في المعسكر. فالمعسكر من خلال ذلك يجني الآلاف الزائدة من البناء، ويوزع المكافآت على ملازميه. فولكافوي إياه لقاء كرباجه أما أنت، المعتقل، فتحصل على مائتي غرام إضافية من الخبز مساء، مئتا غرام تحكم الحياة، وبمائتي الغرامات بنيت قنال البحر الأبيض[٤].

جلبوا الماء في دلوين، لكنه تجمد في الطريق. فأعلن بافلو: لا داعي لحمل الماء. الأفضل أن نحصل عليه هنا من الثلج. ضعوا الدلاء على المدفأة.

أحضر غوبتشيك سلكاً جديداً من الألمينيوم، ذاك الذي يستخدم في مد الخطوط الكهربائية، وأعلن:

- إيفان دينيسيتش! هذه الأسلاك جيدة لصنع الملاعق. هلا علمتني كيف أصب ملعقة؟.

يحب إيفان دينيسيتش هذا الغوبتشيك الشاطر. (توفي ولده الوحيد صغيراً، وفي البيت لديه ابنتان كبيرتان).

اعتقل غوبتشيك لأنه كان يحمل الحليب إلى البينديرين (المولدافيين) في الغابة، وحكموا عليه بالسجن كما لو أنه إنسان بالغ. وهو كما الحمل الوديع، بشوش مع الجميع، لكنه لا يخلو من المكر: فهو يأكل ما يأتيه من طرود لوحده، حيث تسمعه يمضغ، والجميع نيام.

وهل يمكن أن يكفي ما لديه الجميع!.

---

[٤]قنال بيلامور – بلنسكيا: قناة تصل البحر الأبيض ببحيرة أونيجسكوي في شمال الاتحاد السوفيتي السابق. بنيت عام ١٩٣٣، طولها ٢٢٧كم/ المترجم

كسرا قطعة من السلك لصنع ملعقة، وخبآها في الزاوية. صنع شوخوف من لوحين ما يشبه السلم، وطلب من غوبتشيك تسلقه لتعليق المدخنة، وكما ابن عرس، اندفع غوبتشيك الخفيف يتسلق العارضتين، ودق المسمار، ثم ربط السلك به، ووضعه أسفل المدخنة. و لم يتكاسل شوخوف، فوضع لمخرج المدخنة كوعاً آخر نحو الأعلى. اليوم الريح ليست قوية، لكنها غداً ستكون، لكي يخرج الدخان بسهولة، ولا يعود أدراجه. يجب أن ندرك أن المدفأة هي لنا نحن.

أما سينكا كليفشين، فقد انتهى من تقطيع العارضتين الطويتلين، وأجبروا غوبتشيك الشاطر على تثبيتهما. راح هذا الشيطان الصغير يتسلق، ويصيح من الأعلى.

ارتفعت الشمس أعلى، فطردت الضباب، واختفت الأعمدة، وراح داخلها يتراقص بلون قرمزي. وهنا توهجت النار في المدفأة، تغذيها الأخشاب المسروقة. ذلكم منتهى السعادة.

وعلق شوخوف:

- يقال إن شمس كانون الثاني لا تدفئ من البقرة إلا خاصرتها.

أنهى كيلديغيس إصلاح صندوق الاسمنت المائع، وصاح، بعد أن ضرب عليه بالمطرقة:

- اسمع يا بافلو! لن أرضى من رئيس المجموعة بأقل من مئة روبل لقاء هذا الصندوق.

ويضحك بافلو:

- سوف تحصل على مئة غرام.

ويصيح غوبتشيك من الأعلى:

- سيضيف النائب العام.

- لا تمسوه، لا تمسوه! صرخ شوخوف، إذ رآهم يقصون الورق القطراني بشكل خاطىء، وبين لهم الطريقة الصحيحة.

توافد الكثيرون نحو مدفأة الصفيح، فطردهم بافلو، وأرسل من يساعد كليديغس، وأمر بتحضير أوعية المحلول الاسمنتي، ومن ثم حمله إلى الأعلى. كما أرسل اثنين آخرين للمساعدة في نقل الرمل، وبعث إلى الأعلى من ينظف السقائل والبناء نفسه من الثلج. وكلف آخر بصب الرمل المسخن على الصفيحة، وفي صندوق الاسمنت المائع.

ومن الخارج تناهى صوت نخير المحرك، لقد بدأوا نقل أحجار البناء، وبدأت الآلة تشق طريقها. جرى بافلو إلى الخارج، وهو يلوح بيديه، مشيراً إلى المكان، الذي يجب رمي الأحجار فيه.

خاطوا الشريط الأول من الورق القطراني، ثم الثاني. لكن أية حماية يمكن أن يؤمنها الورق القطراني؟ فهو ورق، مجرد ورق، ومع ذلك فقد بدا وكأن الجدار أصبح كاملاً، وازدادت العتمة في الداخل، فبدا الفرن أكثر توهجاً.

أحضر أليوشكا الفحم، وصاح به البعض: إدلق، بينما صاح به آخرون: لا تدلق! دعنا نتدفأ على الخشب. فوقف لا يعرف لمن يصغي.

استقر فيتيوكوف قرب المدفأة، وقرّب الأحمق، جزمته من النار مباشرة. أخذه الضابط البحري بتلابيبه، ورفعه، ثم دفع به نحو الحمالة:

- إذهب لحمل الرمل، أيها الفتيل.

ينظر الضابط البحري إلى المعسكر كما ينظر إلى العمل البحري: قيل لك أن تعمل فاعمل. لقد نحل الضابط البحري كثيراً خلال الشهر الأخير، لكنه لا يزال يقوم بعمله.

أخيراً أصبحت النوافذ الثلاث كلها مغطاة بالورق القطراني.

والآن أصبحت الأبواب وحدها مصدر الضوء، والبرد أيضاً. حينها أمر بافلو بسد القسم العلوي من الأبواب، بحيث يستطيع الإنسان الدخول من القسم السفلي، إذا ما أحنى رأسه. ولقد سدت.

وفي هذا الوقت جلبت ثلاث شاحنات قلاب أحجار البناء، وأفرغتها، وأصبحت المهمة الآن تكمن في رفعها، لكن كيف بدون رافعة؟.

وصاح بافلو:

- هيه، أيها البناءان، تعاليا نرفعها.

إنه عمل محترم. صعد شوخوف وكيلديغيس مع بافلو إلى الأعلى. كان السلم في غاية الضيق، ثم جاء سينكا، ونزع الدرابزون، وأصبح لزاماً عليك أن تلتصق بالجدار، لكي لا تسقط نحو الأسفل، ومما زاد في الطين بلة أن الثلج تجمد على درجات السلم، وجعلها دائرية الشكل، فلا تستطيع أن تثبت قدميك عليها. فكيف يمكن حمل الاسمنت المجبول؟.

تفحصوا المكان، الذي سترفع فيه الجدران، ولابد من تنظيفه من الثلج بواسطة الرفوش. هاهنا. لابد من تكسير الجليد الذي يغطي البناء القديم، بواسطة المطرقة، ومن ثم تنظيفه بالمكنسة.

تفحصوا المكان لمعرفة أفضل السبل لرفع الأحجار، وبعد أن نظروا نحو الأسفل، اتفقوا على أنه، بدلاً من رفعها عن طريق السلم، الأفضل أن يقف أربعة في الأسفل، ويرفعوا الأحجار

فوق تلك العوارض، حيث يقوم اثنان برميها بـدورهم، وفي الطابق الثاني يقف آخران، يكدسانها في المكان المناسب. ثم إن هذا سيكون أسرع.

الريح في الأعلى ليست قوية، لكنها باردة، ولسوف تنفذ حتى العظام عندما سنبدأ بناء الجدران. وإذا ما وقفت خلف الجدران القائمة، فإنك ستجد بعض الحماية، حيث المكان أدفأ بكثير.

رفع شوخوف نظره نحو السماء، وفغر فاه: فالسماء صافية، والشمس تكاد تصل إلى مستواها عند الظهيرة. إنه لأمر غريب حقاً: فالوقت يمر بسرعة، عندما يكون الإنسان منكباً على العمل. وكم من مرة لاحظ شوخوف أن الأيام في المعسكر تجري بسرعة خاطفة. لكن المحكومية تبقى هي نفسها، لا تنقص أبداً.

نزلوا إلى تحت، فوجدوا الجميع جالسين قرب المدفأة، باستثناء الضابط البحري وفيتيوكوف، اللذين يحملان الرمل. استشاط بافلو غضباً، وأرسل ثمانية أشخاص، دفعة واحدة، لنقل الأحجار. وأمر اثنين بصب الاسمنت في الصندوق، وتحريكه، وهو جاف، كما أرسل أحدهم لجلب الماء، وآخر لجلب الفحم.

أما كيلديغيس فيقول لزمرته:

- هيا يا شباب. يجب أن ننتهي من نقل الاسمنت.

- طيب، هل أساعدهم أنا؟، سأل شوخوف، طالباً العمل من بافلو.

- ساعدهم، هز بافلو رأسه.

وهنا جلبوا الصهريج، لتذويب الثلج، ومن أجل جبل الاسمنت. ونقل عن أحدهم قوله كأن الساعة بلغت الثانية عشرة.

وأعلن شوخوف:

لاشك أنها الثانية عشرة، فالشمس بلغت السمت تماماً.

ورد الضابط البحري:

- إذا كانت في السمت، فهذا يعني أنها الواحدة، وليس الثانية عشرة.

- ولماذا تكون الواحدة؟ قال شوخوف متعجباً، جميع أجدادنا يعرفون أن الشمس تكون أعلى ما تكون عند الظهيرة.

- هذا بالنسبة للأجداد- تابع الضابط البحري- لكن منذ ذلك الحين صدر مرسوم يقضي بأن الشمس تبلغ ذروة ارتفاعها في الواحدة.

- ولمن هذا المرسوم؟.

- للسلطة السوفيتية.

خرج الضابط البحري مع الحمالة، وحتى لو بقي لما استمر شوخوف في الجدل. فهل يعقل أن الشمس تخضع لمراسيمهم؟.

تابعوا الدق والضرب، وصنعوا أربعة طسوت.

وقال بافلو، مخاطباً البنائين الاثنين:

- حسن، فلنجلس، ولنتدفأ. وأنت يا سينكا ستبني أيضاً. اجلسوا.

وجلسوا قرب الموقد بشكل شرعي. في كل الأحوال لا يمكن البناء قبل الغداء، وليس من المناسب جبل الاسمنت الآن، إذ يتجمد.

كان الفحم يتوهج رويداً، رويداً، وها قد أصبحت الحرارة الآن مستقرة. لكنك لا تشعر بها، إلا قرب الفـــرن، أمـــا في الصالة ككل، فلا يزال البرد على حاله.

راحوا أربعتهم، وقد خلعوا قفازاتهم، يدفئون أيديهم قـــرب المدفأة.

أما بالنسبة للقدمين، فلا تقربهما من المدفأة، قبل أن تخلـــع الحذاء، هذا ما يجب أن يكون معلوماً للجميع. فإذا كنت في الحذاء، فإن جلده سوف يتشقق، بسبب الحرارة، وإذا كنـــت في جزمة اللباد، فإن الجزمة ستصبح رطبة، وستنفث البخـــار، وبالتالي فلن تشعر بالدفء أبداً. ثم إذا ما قربتها من النار أكثر، تحرقها، وستبقى تمشي بها، وهي مثقوبة، حتى فصل الربيع، إذ لن تحصل على جزمة أخرى.

ويقول كيليديغس:

- وماهمّ شوخوف؟ إن إحدى قدميه، يا إخوان، تكـــاد تكون في البيت.

- هذه القدم الحافية- علق أحدهم، فـــضحكوا. (خلـــع شوخوف فردة جزمته اليسرى المحترقة، وراح يدفئ أربطـــة رجله).

- إن شوخوف على وشك الانتهاء.

أما كليديغس نفسه فقد حكم عليه بخمسة وعشرين عاماً. مرت فترة سعيدة تساوى فيها الجميع، كما أسنان المـــشط، عشرة أعوام لكل من حوكم أثناءها، ومنذ عام تسعة وأربعين، حلت فترة أخرى، خمسة وعشرون عاماً لكل معتقـــل، ودون تمييز. يمكن للمرء أن يعيش خمساً وعشرين؟.

كان شوخوف مسروراً لأن الجميع يشيرون إليه بأصابعهم: وها هو ذا يكاد ينهي محكوميته، لكنه ليس واثقاً من ذلـــك. فمن انتهت محكوميتهم زمن الحرب، احتفظوا بهم، حتى إشعار آخر، ولم يطلق سراحهم إلا عام ستة وأربعين. وهكذا فمن كان محكوماً بثلاث سنوات، أمضى خمساً.

إن القانون مطاط. تنهي عشر سنوات، فيقولون لك هـــاك عشراً أخرى، أو ينفونك.

وأحياناً قد يخطر لك- فتحبس أنفاسك: إن الخلاص آت، فالبكرة تكر. أوه يا إلهي. كل ما أريده هو الخروج من هنـــا على قدمي.

لكن الحديث عن ذلك جهراً لا يليق بنزيل المعسكر العتيق، فيقول شوخوف لكيلديغس:

- لا تحسب سنواتك الخمس والعشرين. ربمـــا تبقـــى في المعتقل خمسة وعشرين عاماً، وربما لا تبقى. هـــذا لا يـــزال "سمكاً في البحر"، أما أنا فقد أمضيت ثمانية أعوام كاملة. هذا لا ريب فيه.

وهكذا فقد تعيش، وأنت غارق في العمل أبداً، وليس لديك الوقت للتفكير: لا كيف جئت؟ ولا كيف ستخرج؟.

من الناحية القانونية، فإن شوخوف هنا عقاباً له على خيانة الوطن. وفي إفادته اعترف بذلك، وبأنه استسلم للعدو، رغبة منه في خيانة وطنه، وأنه إنما عاد من الأسر لكي ينفذ المهمة، التي كلفته بها المخابرات الألمانية. لكن مـــاهي طبيعـــة هـــذه المهمة- هذا ما عجز شـــوخوف، وكـــذلك المحقـــق، عـــن اختلاقها، فتركت على حالها- مهمة فقط.

في المخابرات أوسعوا شوخوف ضرباً. كان حساب شوخوف بسيطاً: إن لم توقع المطلوب، تحفر قبرك بيديك، وإن وقعت، تبق على قيد الحياة على الأقل. فوقع.

لكن ما جرى فعلاً كان على النحو التالي: في شباط من عام اثنين وأربعين حوصر جيشهم بالكامل على الجبهة الشمالية- الغربية، و لم تلقِ لهم الطائرات بأي شيء يؤكل، ثم إن هذه الطائرات نفسها لم تكن موجودة. وقد وصل بهم الأمر إلى حد أنهم راحوا يكشطون حوافر الخيول النافقة، وينقعون تلك القرنية في الماء، ثم يأكلونها. لم يكن لديهم من ذخيرة يرمون بها. و راح الألمان يصطادونهم على مهل في الغابات. وفي إحدى هذه الزمر أمضى شوخوف يومين- ثلاثة في الأسر، في المكان نفسه، في الغابات، وتسللوا عبر المستنقعات، تمكنوا من الوصول إلى القوات الصديقة، بعد لأي. لكن حامل البندقية الآلية الصديق كوم اثنين منهم، فماتا في الحال، أما الثالث فمات لاحقاً، بسبب جروحه، اثنان منهم فقط وصلا سالمين. كان الأجدر بهما أن يقولا أنهما تاها في الغابة، وانتهى الأمر، لكنهما اعترفا بما جرى لهما، وأنهما فرا من الأسر الألماني. من الأسر؟، يا سلام! عميلان فاشيان! وزج بهما وراء القضبان. لو أنهم الخمسة وصلوا سالمين لاختلاف الأمر، أما وهما اثنان، فلم يصدقوهما.

أبداً: لقد اتفقتما أيها الحقيران، واخترعتما قصة الهرب.

ومن خلال سمعه الضعيف ترامى لسينكا كليفشين أنهم يتحدثون عن الهرب من الأسر، فقال بصوت عال:

- وأنا هربت من الأسر ثلاث مرات، وفي الثلاث أمسكوا بي.

إن سينكا صبور، صامت أكثر الأحيان: فهو لا يسمع ما يقال، ولا يتدخل في الحديث. وهكذا فهم لا يعرفون عنه إلا القليل، فقط أنه كان في معتقل بوهينفالد، وأنه عمل هناك في المنظمة السرية، حيث قام بنقل السلاح إلى منطقة المعتقل، من أجل العصيان. وكيف علقه الألمان، ويداه وراء ظهره، وضربوه بالعصي.

ويعترض كيليديغس:

- لقد أمضيت يا فانيا ثمانية أعوام، لكن في أية معتقلات؟، لقد كنت في معتقلات عادية. وكنتم هناك مع النسوان. ولم تكونوا تحملون أرقاماً. لكن جربْ أن تبقى ثمانية أعوام في معتقلات الأشغال الشاقة، حتى الآن لم يتمكن أحد من البقاء.

- مع نسوان! بل مع جذوع الأشجار، وليس مع النسوان.

ثبت شوخوف نظره على نار الفرن، وتذكر السنوات السبع، التي أمضاها في الشمال. وكيف أمضى ثلاثاً منها في قطع الأخشاب يدحرج الجذوع والعوارض. والنار متقلبة كهذه أثناء التقطيع، لكن ليس التقطيع النهاري، بل الليلي. فقد كان النظام عند رئيس المعتقل هو التالي: المجموعة، التي لم تنجز مهمتها نهاراً، تبقى في الغابة، لإنجازها ليلاً. وبعد منتصف الليل كانوا يصلون المعتقل، ومن جديد يساقون إلى الغابة، مع الصباح.

فقال بصوت خافت:

- كلا يا إخوان... إن الحال هنا أهدأ فعلاً. فالنظام هنا أن تعود إلى المنطقة، سواء نفذت، أم لم تنفذ. ثم إن المخصصات هنا أعلى بمئة غرام.

إن العيش هنا ممكن. إنه معتقل خاص، ليكن خاصاً، فهل تضايقك الأرقام؟ لكنها- الأرقام- لا وزن لها.

- أهدأ- فح فيتيكوف (أوشكت فترة الاستراحة، وقد أسرع الجميع إلى المدفأة) — إنهم يذبحون الناس في الفراش. أهدأ...

ورفع بافلو إصبعه، مهدداً فيتيوكوف:

- ليس الناس، بل الوشاة.

وبالفعل فإن شيئاً جديداً بدأ في المعتقل، فلقد ذبحوا اثنين من الوشاة المعروفين، في الفراش مباشرة، وعند الاستيقاظ.

وفيما بعد ذبحوا أحد العمال الأبرياء، ربما ظنوه شخصاً آخر. ثم إن أحد الوشاة لجأ إلى القيادة في السجن. وهناك خبأوه في السجن الحجري. شيء عجيب! مثل هذا لم يحدث في السجون العادية. كما إن هذا لم يحدث هنا سابقاً....

فجأة ترددت الصافرة من قطار الطاقة. في البداية لم تدو بكل قوها، بل بصوت فيه بحة، لكأنها تنظف حلقها.

انصرم النهار! إنها استراحة الغداء.

إيه، لقد فوتوا الفرصة. ومنذ وقت طويل كان يجب أن يذهب أحدهم إلى المطعم، ويحجز دوراً. في المشروع تعمل إحدى عشرة مجموعة، لكن المطعم لا يتسع إلا لاثنتين.

لا يزال رئيس المجموعة غائباً. ألقى بافلو نظرة سريعة، ثم قرر:

- شوخوف وغوبتشيك، تعاليا معي، أنت يا كيلديغس، حين أبعث غوبتشيك إليك- تأخذ المجموعة فوراً.

وللحال استولوا على أماكنهم الشاغرة، لدى الفرن. وأحاطوا بتلك المدفأة، وراحوا يحتضنونها كما لو أنها امرأة.

وصاح الشباب:

- انتهى المبيت. دخنوا.

وراحوا ينظرون إلى بعضهم، من سيبدأ التدخين.

لكن أحداً لم يدخن، إما لأن التبغ غير موجود، وإما أنهم يخبئونه ولا يريدون إظهاره.

خرج شوخوف وبافلو إلى العراء، ومن خلفهما غوبتشيك، يجري كما الأرنب.

وحال خروجهم أعلن شوخوف:

- أصبح الجو أدفأ، درجة الحرارة ثماني عشرة، لا أكثر. سوف يكون البناء سهلاً.

التفتوا ناحية الأحجار، الكثير من الشباب غادروا السقالة، وبعضهم يتجه نحو الجسر، إلى الطابق الثاني.

كما تفحص شوخوف الشمس، وهو يزر عينيه بخصوص المرسوم، الذي ذكره الضابط البحري.

في العراء، حيث تصول الريح وتجول، لا يزال البرد قارساً، قارصاً، وكأنها تقول: لا تنسوا أنكم في شهر كانون الثاني.

المطبخ عبارة عن قاعة صغيرة، مبنية من الألواح الخشبية. حول الفرن، وبغية سد الشقوق بين الألواح، تم تلبيسها بالصفيح، الذي دب الصدأ إليه.

وفي الداخل يوجد فاصل يقسمها إلى قسمين- المطبخ والمطعم.

والأرضية، سواء في المطبخ، أو في المطعم، غير ممهدة، فالتراب لا يزال كما وضع، مليئاً بالحفر والمرتفعات الصغيرة. والمطبخ كله عبارة عن فرن مربع، ركب القدر داخله.

يعمل في ذلك المطبخ اثنان- الطاهي والمشرف الصحي. ومنذ الصباح، عندما يغادر المعتقلون المعسكر، يتسلم الطاهي الجريش في مطبخ المعسكر الكبير. بمعدل خمسين غراماً، على الأرجح للشخص، وكيلو غرام للمجموعة كلها، أما مخصصات كل المجموعات العاملة في المشروع، فلا تقل عن البود° الواحد إلا قليلاً.

والطاهي لن يحمل كيس الجريش ثلاثة كيلو مترات، بل يكلف بذلك معاونه الطفيلي، وبدلاً من أن يكسر ظهره بحمل هذا الكيس، يفضل أن يخصص لمعاونه وجبة إضافية من مخصصات العمال. كما إن الطاهي لا يجلب الماء ولا الحطب ولا يشعل الفرن، بل يكلف الآخرين بذلك، لقاء وجبة إضافية لكل منهم، فهو لا ينفق شيئاً من جيبه. ثم إن المفروض أن يأكل الجميع داخل المطعم: ومع هذا لابد من جمع الصحون من المعسكر،(لا يمكن أن تتركها في المشروع، وإلا فإن الأحرار يسرقونها)، وهكذا يأتون بما لا يقل عن الخمسين صحناً، حيث يتم غسلها، وتعاد بسرعة (ولمن يجلب الصحون وجبة إضافية أيضاً). وبغية الحيلولة دون أخذ الصحون من المطعم، يوضع حارس على الباب، مهمته منع إخراج الصحون. ومهما بذل من جهد فإن الصحون تستمر في الخروج، سواء بإقناعه، أو بجعله يغض الطرف. وهكذا لابد من إرسال من يجمعها في كل أرجاء المشروع، وإعادتها إلى المطعم من جديد. ولهذا وجبة إضافية ولذاك أخرى.

°البود: وحدة وزن روسية قديمة تعادل ١٦,٣٨ كغ. /المترجم.

أما عمل الطاهي، فيقتصر على دلق الجريش والملح في القدر،وتقسيم الشحوم- بعضها للقدر، والآخر لنفسه. (الشحم الجيد لا يصل إلى العمال، أما الشحوم الرديئة، فتوضع كلها في القدر

وهكذا فإن المعتقلين يفضلون أن لا يؤتى من المستودع إلا بالشحوم الرديئة). كما يقوم بتحريك العصيدة، حين توشك على النضج. أما المشرف الصحي فلا يقوم حتى بهذا، بل يجلس ويراقب. وحين تنضج العصيدة يقول الطاهي للمشرف الصحي: املأ كرشك، وهو بدوره يملأ كرشه. وهنا يأتي رئيس المجموعة المناوب- كل يوم يناوب واحد من رؤساء المجموعات- ليأخذ عينة، ويتأكد من مدى صلاحيتها لإطعام العمال. ولقاء مناوبته يحصل على حصته مضاعفة، هذا بالإضافة إلى حصته الأساسية مع مجموعته.

وهنا يتردد الصفير. وتأتي المجموعات، كل بدورها. ويقدم كل فرد صحنه للطاهي. وهذه الصحون مغطاة في أسفلها بالعصيدة، أما كم سيكون نصيبك من الجريش- فهذا ما لن تسأل عنه، ولن تزنه، والويل لك، إن نبست ببنت شفة.

وتصفر الريح فوق السهب الأجرد- ريح جافة صيفاً، وزمهريرية شتاء. ومنذ الأزل لم ينم في هذا السهب أي شيء، أما داخل أحزمة الأسلاك الشائكة الأربعة، فلم ينم شيء قطعاً. فالحبوب لا تنمو هنا إلا في المطعم، حيث يتم تقطيع الخبز، والشوفان لا ينسبل إلا في المستودع. حتى ولو قصمت ظهرك في العمل، ولو بذلت المستحيل فإنك لن تأخذ من الأرض هنا ذرة طعام. ولن تحصل عليه كاملاً، بسبب الطفيليين والطهاة والمغفلين. هنا يسرقون، وفي المنطقة

يسرقون، وقبل هذا وذاك في المستودع يسرقون. وما عليك أنت إلا أن تكدح وتأخذ ما يعطى لك، وتبتعد عن الطاقة.

إن الأقوى يبتلع الأضعف.

دخل بافلو وشوخوف مع غوبتشيك إلى المطعم- حيث كان الزحام على أشده، وقد اختفت الطاولات والمقاعد خلف الظهور، البعض يأكل جالساً، والأكثرية تأكل واقفة.

فالمجموعة الثانية والثمانون، التي أمضت فترة ما قبل الظهر في فتح الحفر، استولت على الأماكن الأولى حال انطلاق الصافرة، وهي لن تذهب الآن، حتى بعد أن تنتهي من الطعام، فليس ثمة من مكان تذهب إليه. يوسعها الآخرون شتماً، لكن ذلك لا يجدي نفعاً، فالبقاء هنا، ولو تحت الشتائم، أفضل من الخروج إلى الصقيع.

شق بافلو وشوخوف طريقهما بالأكواع. ولقد جاءا في الوقت المناسب: إحدى المجموعات تقوم بالاستلام، وواحدة فقط في الدور، ثم إن معاوني رؤساء المجموعات يقفون عند الطاقة. وهذا يعني أن الباقين سيقفون خلفهم.

- صحون، صحون- يصرخ الطاهي من الطاقة، وبدأت الصحون تتحرك نحوه، وبدوره، دس شوخوف صحنه. ليس من أجل عصيدة إضافية، بل بقصد السرعة.

وهناك خلف الحاجز ينكب الطفيليون على غسل الصحون، وهذا العمل أيضاً لقاء العصيدة.

جاء دور مساعد رئيس المجموعة، الذي يسبق بافلو، فنادى بافلو من فوق الرؤوس:

- غوبتشيك!.

- نعم- جاء صوته من الباب. وهو صوت رقيق جداً، كما ثغاء الجدي الصغير.

- ناد المجموعة.

فجرى هذا لا يلوي على شيء.

المهم أن العصيدة اليوم جيدة، من النوع الأفضل- عصيدة الشوفان. وهي نادراً ما تقدم. إن الماغارا، أو النخالة، هي التي تقدم على الغالب. مرتين في اليوم. فالمرق بين حبات الشوفان يجعلك تشعر بالشبع، ولذا فهو مرغوب.

كم قدم شوخوف من الشوفان علفاً للخيول في الماضي، لكن لم يخطر بباله قط أن كيانه كله سوف يتوق إلى حفنة من هذا الشوفان.

- صحون، صحون- يصيحون من الطاقة.

ويقترب دور ال١٠٤فقد استلم معاون رئيس المجموعة، الذي يقف أمام بافلو في صحنه حصة"الرئيس" المضاعفة، وابتعد عن الطاقة.

وهذا أيضاً من مخصصات العمال، وعلى هذا أيضاً لا يجرؤ أي كان على الاعتراض. كل رئيس مجموعة،يحصل على هذه الكمية، وبوسعه أن يأكلها أو يعطيها لمعاونه. إن تيورين يعطيها لبافلو.

إن مهمة شوخوف الآن هي: اندس خلف إحدى الطاولات. وطرد اثنين من جامعي الصحون، وبكل أدب استأذن من أحد العمال، ثم نظف قسماً من الطاولة، يتسع لاثني عشر صحناً، إذا ما وضعت لصق بعضها. ويمكن أن توضع فوقها ستة صحون أخرى في طابق ثان، ومن الأعلى يمكن وضع صحنين آخرين. الآن يجب استلامً الصحون من

بافلو، وتكرار العد وراءه، والسهر على سلامة الصحون، كي لا يسرق أحدهم صحناً عن الطاولة، والحرص على أن لا يدفعه أحد بمرفقه، فيقع الصحن. وهنا بالقرب منه يخرجون ويدخلون، ويأكلون. يجب أن يكون في منتهى اليقظة: هل يأكلون حصتهم، أم أنهم ينشلون حصة مجموعته؟.

- اثنان، أربعة، ستة، يكرر بافلو وراءه، بصوت ضعيف، وللحال يسلم شوخوف صحنين، بصوت عالٍ، لكنه أحذق منهما في العد.

- ثمانية، عشرة.

ما بال كيليديغس لم يأت بالمجموعة؟.

- اثنا عشر، أربعة عشر.... يستمر العد.

لكن الصحون في المطبخ لم تكف. ويرى شوخوف وهو ينظر غير بعيد عن رأس بافلو وكتفه، أن يدي الطاهي وضعتا صحنين في الطاقة، ثم توقفتا، كأنهما تترددان.

من الواضح أنه التفت نحو غاسلي الصحون، وراح يشتمهم. وهنا مدوا له كومة جديدة من الصحون الفارغة عبر الطاقة.

فسحب الطاهي يديه من تحت الصحنين السفليين، وراح يناول كومة الصحون الفارغة، لمن يقف وراءه.

غادر شوخوف كومة صحونه على الطاولة، وقفز بقدمه من فوق المقعد، ثم سحب الصحنين كليهما، وكرر بصوت غير عال، ليس للطاهي على ما يبدو، بل لبافلو:

- أربعة عشر.

- قف! إلى أين سحبتهما؟، صرخ الطاهي.

- إنهما، لنا، أكد بافلو.

- لكما، لكما، لكن عدوا بشكل صحيح.

- أربعة عشر، قال بافلو، وهو يهز كتفيه. إنه هو نفسه ما كان ليغش في العد، فلابد من الحفاظ على هيبته كمعاون رئيس مجموعة، وكل ما في الأمر أنه يكرر الرقم وراء شوخوف، وبالامكان وضع اللوم عليه.

- لكن سبق أن قلت "أربعة عشر"، زعق الطاهي.

أوضح شوخوف:

- طيب، ولو أنك قلت، إنك لم تعطني إياهما، بل أ وقفت يديك. تعال وعدهما، إن كنت غير مصدق؟ هاهي ذي كلها على الطاولة.

كان شوخوف يصرخ بالطاهي، حين لاحظ الإستونيين قادمين نحوه، فناولهما الصحنين على عجل، كما لحق أن يعود إلى الطاولة، ويطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام، وأن الجيران لم يسرقوا شيئاً، علماً أنه كان بوسعهم ذلك.

ظهرت سحنة الطاهي الحمراء بكاملها في الطاقة.

- أين الصحون؟، سأل بصرامة.

- هاك، تفضل- صاح شوخوف- ابتعد من هنا، لا تحشر نفسك هنا أيها الغربال- أضاف شوخوف، وهو يدفع أحدهم، ثم أردف: هاهما صحنان- ورفع صحني الطابق الثاني عالياً، هاك ثلاثة صفوف، في كل منها أربعة، كل شيء واضح، وعدها.

- والمجموعة، لم تأت؟ سأل الطاهي، وأرسل نظرة شك عبر تلك الفسحة، التي تسمح له الطاقة بالنظر منها، والطاقة ضيقة لكي لا يسترقوا النظر من المطعم إلى القدر، ويعرفوا ما بقي فيه.

- لا، لم تأت المجموعة بعد- هز بافلو رأسه نفياً.

فثارت ثائرة الطاهي:

- إذن ما الداعي لحجز الصحون، إن لم تكن المجموعة موجودة؟.

هاهي ذي المجموعة- صاح شوخوف.

- وتناهى إلى الجميع صياح الضابط البحري بالباب، كأنه في السلوقية[٦]:

- لماذا تجمهرتم؟ أكلتم، فاخرجوا. دعوا الآخرين يأكلون.

استمر الطاهي في دمدمته قليلاً، واستقام، ومن جديد ظهرت يداه في الطاقة:

- ستة عشر، ثمانية عشر....

وبعد أن صب في الدفعة الأخيرة حصة مضاعفة، في كل صحن، قال:

- ثلاثة وعشرون انتهينا. المجموعة التالية.

- بدأ أفراد المجموعة يشقون طريقهم، وراح بافلو يناولهم الصحون، ويمدها للبعض، فوق رؤوس الجالسين، ليضعوها على الطاولة الأخرى.

في الصيف يتسع كل مقعد لخمسة أشخاص، أما الآن، والجميع يرتدون الثياب السميكة، فبالكاد يتسع لأربعة، وهم يجدون صعوبة بالغة في تحريك مرافقهم.

ولما كان شوخوف يعتقد أن أحد الصحنين المزدوجين على الأقل سيكون من نصيبه، بدأ يتناول صحنه الخاص به على عجل. ومن أجل ذلك طوى ركبته اليمنى، وسحب ملعقة "أوست إيجما ١٩٤٤" من قصبة الجزمة، ثم نزع قبعته،

---

[٦] السلوقية: المكان المخصص للقبطان على ظهر السفينة. / المترجم.

وضغطها تحت إبطه الأيسر، وشرع يلامس العصيدة على أطراف الصحن بالملعقة.

هذه اللحظة كان لابد من تكريسها كلها للطعام، فبكل حرص ترفع تلك الطبقة الرقيقة من العصيدة من قعر الصحن، وبكل حذر تصل بها سالمة إلى فمك، وهناك يبدأ لسانك في مضغها. لكن لابد من الاسراع كي يرى بافلو أنه قد أتى على صحنه، فيعرض عليه العصيدة الثانية. ثم إن هناك فيتيوكوف، الذي جاء مع الإستوبيين، ولقد لاحظ كل شيء، فما إن رأى كيف حصلوا على العصيدتين الزائدتين، حتى وقف مقابل بافلو، وراح يأكل واقفاً، وهو يختلس النظر إلى وجبات المجموعة الأربع الباقية، التي لم يمسها أحد. ولقد أراد بذلك أن يبين لبافلو أنه يستحق أن يعطى. إن لم يكن وجبة كاملة. فنصف وجبة، على الأقل.

بيد أن بافلو الأسمر الشاب كان يأكل صحنه بكل هدوء، ولم يكن وجهه يوحي أبداً أنه يرى أحداً بجواره، أو يتذكر أن هناك وجبتين زائدتين.

انتهى شوخوف من العصيدة. ولما كان قد هيأ معدته لصحنين معاً، فإنه لم يشعر بالشبع، بعد أن أتى على الصحن بالشبع، كما كان يشعر به دائماً عند تناول عصيدة الشوفان. دس شوخوف يده في جيبه الداخلي، وتناول من القماشة البيضاء قطعة الخبز الرقيقة، نصف الدائرية، والتي لم تتجمد، ثم راح يمسح بها كل بقايا العصيدة، في أسفل الصحن، وما علق منها على جوانبه. وبعد أن جمع منها القليل، راح يلعق العصيدة عن قطعة الخبز، ثم عاد إلى المسح من جديد. أخيراً أصبح الصحن نظيفاً، لكأنه مغسول، وإن بقيت عليه غشاوة.

ناول شوخوف الصحن من فوق كتفه إلى جامعي الصحون، وبقي جالساً دقيقة، حاسر الرأس.

وعلى الرغم من أنه هو من خدع الطاهي، وأخذ صحنين إضافيين، فإنهما ملك لمساعد رئيس المجموعة.

وبعد فترة من الانتظار المضني، أنهى بافلو صحنه، لكنه لم يلعق البقايا، بل اكتفى بلعق الملعقة، ومن ثم خبأها، ورسم شارة الصليب. بعد ذلك لامس صحنين من الأربعة- لم يكن بالا مكان تحريكهما بسبب ضيق المكان- وكأنه بذلك يقدمهما إلى شوخوف:

- إيفان دينيسيفيتش. خذ صحناً، واعط الآخر لقيصر.

إن شوخوف يذكر أنه يجب أخذ صحن لقيصر في المكتب (لم يسبق لقيصر أن أذل نفسه بالذهاب إلى المطعم إن هنا، وإن في المعسكر). إنه يذكر ذلك، لكن عندما لامس بافلو الصحنين معاً، كاد قلب شوخوف يتوقف عن الخفقان: هل يعطيه بافلو الصحنين الزائدين كليهما؟ والآن عادت دقات قلبه إلى مجراها الطبيعي.

وللحال انحنى فوق غنيمته الشرعية، وشرع يأكل بتبصر، دون أن يشعر بالمجموعات الجديدة، وهي تدفعه في ظهره.

كان يأسف فقط أن يعطي فيتيوكوف العصيدة الثانية. إن فيتيوكوف ماهر جداً في التطفل، لكنه لا يتحلى بالجرأة الكافية لمغافلة الطاهي.

... وبالقرب منهم كان يجلس الضابط البحري بوينوفسكي.

لقد أتى على عصيدته منذ فترة طويلة، ولم يكن يعرف بوجود عصيدة زائدة في المجموعة، ولم يلتفت ليعرف كم من

الصحون بقي لدى مساعد رئيس المجموعة. وكل ما في الأمر أنه استرخى، وتدفأ، ولم يعد قادراً على النهوض، والخروج إلى الصقيع، أو إلى المدفأة، التي لا تدفىء. إنه الآن يشغل مكاناً غير شرعي هنا، ويضايق المجموعات المتوافدة، مثله مثل أولئك الذين طردهم بصوته المعدني، لخمس دقائق خلت. إنه حديث العهد بالمعسكر، غر في الأعمال المشتركة.

كانت هذه الدقائق الخالية (لم يكن يعرف ذلك) دقائق في غاية الأهمية له، فقد حولته من ضابط بحري سلطوي جهوري إلى معتقل خامل حذر، وبهذا الخمول وحده يمكن تذليل سنوات السجن الخمس والعشرين، التي نضدت له.

... بدأوا يصيحون به، ويدفعونه في ظهره، لكي يخلي المكان.

وقال بافلو:

- أيها الرائد، أيها الرائد!

جفل بوينوفسكي، كمن استيقظ فجأة، والتفت! مد بافلو بالعصيدة له، دون أن يسأل عما إذا كان يريد أم لا.

ارتفع حاجبا بوينوفسكي، وراح ينظر إلى العصيدة كمعجزة حقيقية.

- خذها، خذها- قال له بافلو مطمئناً، ثم أخذ العصيدة الأخيرة لرئيس المجموعة، وانصرف.

علت ابتسامة من يشعر بالذنب الشفتين المتشققتين للرائد، الذي طاف من حول أوروبا. وقطع الطريق الشمالي الكبير،وانحنى سعيداً، فوق المغرفة غير الكاملة من عصيدة الشوفان المائعة، الخالية تماماً من الدسم، فوق الشوفان والماء.

ألقى فيتيوكوف نظرة غضب على شوخوف والرائـــد، ثم ابتعد.

أما شوخوف فقد اعتبر أن بافلو قــد أصــاب في إعطــاء العصيدة للرائد. سيمر الوقت، ويتكيف الرائد مع الوضع هنا، أما الآن فلا يزال غير قادر.

وكان ثمة أمل ضعيف يحدو شوخوف، ألن يعطيــه قيــصر عصيدته؟ هذا احتمال ضعيف لأن قيصر لم يستلم طرداً، منذ أسبوعين.

بعد صحن العصيدة الثاني، وبعد مسح قعر الصحن وجوانبه بقشرة الخبز، وبعد لعق القشرة، أكثر من مرة. اِلتهم شوخوف القشرة أخيراً. بعد ذلك أخذ عصيدة قيصر الباردة، وذهب.

- إلى المكتب- دفع شوخوف الطفيلي، الواقف بالبـــاب، والذي لا يسمح بإخراج الصحون.

كان المكتب عبارة عن عزبة خشبية، بجوار المخفر. وكـــان الدخان لا يزال يتصاعد من مدخنته، كما كان في الصباح. إن من أشعل المدفأة هناك هو المناوب، وهو ساعٍ أيضاً، يجلبونــه بشكل دوري. وهم لا يضنون على المكتب بشذرات الخشب والعيدان!.

صَرَّ الباب الخارجي، عندما فتحه شوخوف، ومن ثم فــتح باباً آخر، ملبساً باللباد، وعبر إلى الداخل، ومعه دفقات مــن البخار الصقيعي، وأسرع في جذب الباب خلفه (أســرع في ذلك كي لا يصرخوا به: هيه"، أغلق الباب أيها الحقير").

بدت له الحرارة في المكتب كما في الحمام. وعبر النوافـذ، ذات الجليد الذائب، كانت الشمس تتراقص بمـرح، ولـيس بحقد، كما هو الحال هنا، فوق المحطة.

وكان الدخان العريض، المنطلق من غليون قيصر، ينتـشر كما ينتشر البخور في الكنيسة. أما المدفأة فكانـت حمـراء متوهجة، كما تتوهج الأصنام. والمدخنة حمراء قانية.

في دفء كهذا يكفي أن تجلس لحظة، حتى تروح في سبات عميق.

في المكتب غرفتان. الثانية هي غرفة المشرف على الأعمال، بابها موارب، ومن هناك يتناهى صوت المشرف مزمجراً:

- لدينا هدر في صندوق الأجور، وهدر في مواد البناء. إن المعتقلين يأخذون الألواح التي لا تقدر بثمن، هذا عداك عـن ألواح التركيب، فيقطعونها إلى أخشاب، ويحرقونها في المدافىء. أما أنتم فلا ترون شيئاً. فمنذ أيام أفرغ المعتقلـون الاسمنـت قرب المستودع في الريح العاتية، ثم حملوه علـى الحمـالات لمسافة عشرة أمتار، إن كل الساحة المحيطة بالمستودع، مغطاة بالاسمنت حتى الرسغ، وهكذا فقد انصرف العمـال مجللـين باللون الرمادي، لا الأسود. يا له من هدر كبير.

هذا يعني أن لدى المشرف اجتماعاً مع رؤساء فرق العمال، على الأرجح.

في الزاوية، القريبة من المدخل، يجلس المناوب على الكرسي، مسترخياً، وغير بعيد يجلس شكورا باتينكا. ب -٢١٩- العود الأعوج، وقد ثبت نظره على النافذة، ليرى مـا إذا كـانوا يسطون على بيوته المسبقة الصنع. لكنك لم تر الورق القطراني يا عماه.

كما كان ثمة محاسبان، من المعتقلين أيضاً، يسخنان الخبز على المدفأة، ولكي لا يحترق، وضعوا تحته شبكة مصنوعة من الأسلاك.

كان قيصر يدخن الغليون، وهو مستلق لدى طاولته، وظهره إلى الباب، فلم ير شوخوف.

وفي مواجهته يجلس ه-١٢٣، المحكوم بعشرين عاماً أشغال شاقة، وهو كهل معروف. كان يأكل العصيدة.

ويقول قيصر، وهو يتغاضى قليلاً:

- كلا يا أخ. إن الموضوعية تتطلب الاعتراف أن إيزنشتين عبقري. ثم أوليس "إيفان الرهيب" عبقرياً؟ ورقصة الأوبريتشنيكي[٧] المقنعين! والحفلة في الكنيسة! ويتوقف ١٢٣ه، عن الأكل، والملعقة قرب فمه ليصيح بغضب:

- كله تصنع. هناك الكثير من الفن لدرجة أنه لم يعد هناك من فن، الفلفل والخشخاش، بدلاً من لقمة العيش.

ثم إنها فكرة سياسية في منتهى الحقارة، تبرير الطغيان الفردي. إنها تدنيس لذكرى الأجيال الثلاثة للإنتيلجينسيا الروسية! (إنه يأكل العصيدة بفمه بشكل آلي، فلا تعود عليه بأي نفع).

- طيب، وأي تأويل آخر كان يمكن أن يمرر؟...

- آخ يمرر؟ إذن لا تقل عبقري! بل قل منافق، وإنه كان ينفذ مهمة قذرة. فالعباقرة لا يفصلون التأويل على ذوق الطغاة.

---

[٧] اوبريتشنينا: فرقة من الحرس أسسها القيصر إيفان الرهيب في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وقد عاثت في روسيا فساداً، وارتكبت أفظع جرائم القتل والتعذيب والنهب والإغتصاب وكان إيفان الرهيب يشاركها نشاطها أحياناً. / المترجم.

- إحم، إحم،

- سعل شوخوف، وهو يشعر بالخجل من قطع هذا الحديث الثقافي. لكن وقوفه هناك كان عديم الجدوى.

التفت قيصر، ومد يده في طلب العصيدة، حتى أنه لم ينظر إلى شوخوف، لكأن العصيدة جاءت من تلقاء نفسها، وتابع:

- اسمع، إن الفن ليس ماذا، بل كيف.

فتحمس ه- ١٢٣، وضرب الطاولة بحرف كفه، مرة، وأخرى:

- أبداً، لبأخذ الشيطان "كيفك" هذه، إن لم توقظ المشاعر الخيرة لدي.

وقف شوخوف الفترة، التي يقتضيها التهذيب بعد أن سلم العصيدة. لقد انتظر أن يضيفه قيصر سيجارة، لكن قيصر لم يكن يذكره، وأنه يقف من خلفه.

دار شوخوف على عقبيه، وانصرف.

لابأس. ليس البرد قارساً جداً في الخارج. إن البناء اليوم سيكون مناسباً.

سار شوخوف سالكاً الدرب، فرأى على الثلج قطعة من مدية فولاذية صغيرة،قطعة معدنية مكسورة. وعلى الرغم من أنه لم يكن بحاجة إلى هذه القطعة، لكن من يعرف إن كان سيحتاجها مستقبلاً، وهكذا فقد تناولها، ودسها في جيب بنطاله، ثم خبأها في المحطة، الموفّر أفضل من الغني.

ما إن وصل المحطة حتى أخذ المسيعة المخبأة، ودسها تحت حبل حزامه، وبعد ذلك فقط حشر نفسه في ورشة الجبل.

وهناك، بعد ضوء الشمس، بدا له المكان معتماً تماماً، وليس أكثر دفئاً من الخارج، لا بل إنه أكثر رطوبة.

تحلق الجميع حول المدفأة الدائرية، التي نصبها شوخوف، وبالقرب من تلك التي يتم فيها تسخين الرمل، والبخار يتصاعد منهم. ومن لم يتسع له المكان، يجلس على حرف صندوق الجبل. أما رئيس المجموعة فيجلس لدى المدفأة مباشرة، وهو يوشك على الانتهاء من تناول العصيدة، وكان بافلو قد سخنها له على المدفأة.

ثمة شوشرة بين الشباب. إنهم مرحون، ويقولون لايفان دينيسيتش بصوت ضعيف: لقد أغلق رئيس المجموعة نسبة الإنتاج جيداً، فعاد مرحاً.

ترى أي عمل ذاك الذي سجله، هذا من شأنه هو كرئيس مجموعة. فما الذي قاموا به هذا اليوم، قبل الظهر؟ لا شيء. نصب المدفأة، دون مقابل، وكذلك السخان، فهم إنما قاموا بذلك لأنفسهم، وليس لصالح الإنتاج، لكن لابد من تسجيل شيء ما في جدول الخدمة اليومية. ربما يقدم قيصر خدماته لرئيس المجموعة، فيما يتعلق بهذه الأمور، وليس عبثاً هذا الاحترام الذي يكنه له الرئيس. "أغلقها جيداً"، هذا يعني أن حصص الطعام ستكون جيدة خمسةَ أيام، قد لا يكون خمسة، وإنما أربعة فقط: من الأيام الخمسة تقتطع القيادة واحداً. وهي تقتطعه من المعسكر كله، حيث يتساوى الصالحون والطالحون. للوهلة الأولى يبدو أن أحداً لا يشعر بالاستياء، فالجميع متساوون، لكنهم يوفرون على حساب تجويعنا. طيب، إن معدة المعتقل تتحمل كل شيء، اليوم على الطوى، وغداً سنشبع، على هذا الأمل يأوي المعسكر إلى الفراش في يوم التوفير.

وإذا ما تمعنا في الأمر ملياً، فإننا نعمل خمسة أيام، لكننا لا نأكل إلا أربعة أيام.

المجموعة هادئة، ساكنة، ومن لديه تبغ يدخن خفية. تجمعوا في العتمة، وراحوا ينظرون إلى النار، كأنهم أسرة كبيرة، وهي أسرة بالفعل، مجموعة، يصغون إلى الرئيس وهو يتحدث إلى اثنين، ثلاثة عند المدفأة، وليس من عادته أن ينطق بالكلام جزافاً أبداً، وإذا ما انطلق في الحديث، فهذا يعني أنه في مزاج رائق.

وأندريه براكوفيتش بدوره، لم يتعلم الأكل وهو مرتدٍ قبعته، إن الشيخوخة تبدو على رأسه، حين يكون حاسراً، فهو ذو قصة قصيرة، كما الجميع، وفي ضوء نار المدفأة يبدو واضحاً كم وخط الشيب شعره، الضارب إلى اللون الرمادي.

-... حتى أمام قائد الكتيبة وقفت أرتجف، فما بالك بقائد الفوج! قلت أقدم نفسي: "تيورين، من الجيش الأحمر، جئت بناء على أوامركم... فحدق بي من تحت حاجبيه البريين: وما اسمك، واسم أبيك؟، فأخبرته.

وسأل:"تاريخ الميلاد"؟ فأخبرته. لم يكن عمري حينذاك، في العام ثلاثين، سوى اثنين وعشرين عاماً، كنت لا أزال شاباً.
"طيب وكيف تخدم يا تيورين"؟

"إنني في خدمة الشعب الكادح"!، وهنا ثارت ثائرته، وضرب على الطاولة بملء يديه، طاق، "تقول إنك تخدم الشعب الكادح و لكن من تكون أنت يا حقير؟..

وشعرت وكأن القطران يغلي في داخلي... لكنني تماسكت:
"رامي رشاش، الرقم الأول. ممتاز قتاليا وسياس..."

عن أي رقم أول تتحدث يا وغد؟ إن أباك إقطاعي، ها قد وردتنا مذكرة من كامين، أن أباك إقطاعي، أما أنــت فقــد اختفيت، وللعام الثاني يجري البحث عنك. وقفت شاحباً، لا أنبس ببنت شفة، طيلة عام كامل لم أكتب رسائل إلى البيت، كي لا يعثروا على أثري.

فهل هم أحياء، ولا أعرف عنهم شيئاً، ولا أهلي يعرفــون عني. "كيف يسمح لك ضميرك، زعق بصوت عال، حتى أن العوارض الأربع راحت تتراقص، أن تخدع السلطة العماليــة، الفلاحية"؟.

اعتقدت أنه سوف يضربني، لكنه لم يفعل، بل وقع أمــراً- يطرد من البوابة بعد ست ساعات... كنا آنذاك في تــشرين الثاني. انتزعوا ثيابي الشتوية، وسلموني الصيفية، وحذاء رقيقاً، وجورباً بالياً، ومعطفاً عتيقاً. لم أكن أعرف أن بوســعي أن أسلمها، وأن أرسلها...

كما أعطوني وثيقة تثبت أنني "مسرح من صفوف الجيش... باعتباره ابن إقطاعي". وأي عمل يمكن أن يحصل عليه مــن يحمل وثيقة كهذه! كان السفر إلى البيت يتطلب أربعة أيام في القطار. ولم يمنحوني وثيقة تسمح لي بالحصول على البطاقــة المجانية، أو المخفضة، كما لم أعط الجعالة، ولو ليوم واحــد. وقدموا لي طعام الغداء للمرة الأخيرة، ثم دفعــوا بي خــارج الثكنة العسكرية.

... بالمناسبة في عام ثمانية وثلاثــين التقيــت في معــسكر الانتقال في منفى كوتلاس، آمر فصيلتي السابق، الذي حصل على عشر سنوات هو الآخر، وقد عرفت منه أن قائد الفوج ذاك، والمفوض- كليهما قد أُعدما في عام سبعة وثلاثين. فمن

كانا، من البروليتاريا، أم من الإقطاعيين؟، وهل كان لديهما وجدان أم لا...

رسمت إشارة الصليب، وأنا أقول: "إنك موجود أيها الخالق في السماوات، تُمهِلُ كثيراً، لكنك لا تُهْمِلُ أبداً".

بعد صحني العصيدة، شعر شوخوف بأمس الحاجة إلى التدخين. ولما كان ينوي شراء قدحين من التبغ، وحينذاك يسدد ما عليه، فقد قال لصياد السمك الإستوني، بصوت خافت:

- اسمع يا إينو، هلا اقترضت لي عبوة سيجارة واحدة، حتى يوم غد، فأنت تعرف أنني لن أخدعك.

نظر إينو في عيني شوخوف مباشرة، ومن ثم، وعلى مهل نظر إلى "أخيه". كل شيء لديهما مناصفة، ولا يمكن لأي منهما أن ينفق ذرة تبغ دون علم الآخر. وبعد أن همهما على بعضهما بشيء ما. أخرج إينوكيس التبغ، المزخرف برباط وردي. ومن هذا الكيس إياه أخرج قبضة من التبغ المفروم في المعمل، ووضعها على راحة شوخوف، وقدرها، ثم أضاف عدة نثرات أخرى. إنها تكفي للف سيجارة واحدة لا أكثر.

أما الصحيفة فموجودة لدى شوخوف. مزق منها قطعة، لفها، ورفع الجمرة، التي تدحرجت بين قدمي الرئيس، وأخذ سحبة وسحبة أخرى، فسرت الدوخة قوية، في كل أنحاء جسمه، كما شعر بالخمار يسري إلى قدميه ورأسه.

لم يكد يأخذ السحبة الأولى، حتى استعرت عينان خضراوان، وصله بريقهما عبر الورشة كلها: إنه فيتيوكوف. كان من الممكن أن يرأف شوخوف بابن آوى هذا، ويعطيه عقب هذه السيجارة، لكنه سبق أن اصطاد اليوم عقباً، لقد

رآه شوخوف. الأفضل أن يتركه لسينكا كليفشين، فهو لا يصغي لرواية رئيس المجموعة، بل يجلس حزيناً، أمام النار، وقد أمال رأسه جانباً.

كان الضوء من الفرن يسقط على وجه الرئيس المنمش. إنه يتحدث دون أي انفعال، لكأن الحديث لا يدور عنه:

- "دفعت كل ما لدي من سقط المتاع لأحد تجار الجملة، لقاء ربع ثمنها، واشتريت رغيفين من الخبز المهرب، فقد كان الخبز آنذاك يباع بالبطاقات التموينية، وخطر لي ان أسافر في قطار البضائع، لكن القوانين صدرت صارمة بهذا الخصوص: تطلق النار على من يركب قطارات البضائع...

ومن يذكر فإن الحصول على تذاكر السفر في تلك الآونة كان مستحيلاً، حتى لقاء ثمنها. فما بالك بدون نقود.

كانت كل ساحة المحطة مزروعة بالفلاحين، في معاطفهم الصوفية، حيث كانوا على وشك الموت جوعاً، وهم عاجزون عن السفر. فمن المعروف لمن تعطى التذاكر، للإدارة السياسية العامة، للجيش وللمسافرين في مهمات رسمية. وعلى رصيف المحطة أيضاً كان الزحام على أشده: الشرطة تقف في الأبواب، وعلى جانبي المحطة يسعى الحراس على السكة الحديدية، جيئة وذهاباً. وتميل الشمس الباردة، ويتسرب التجمد إلى البرك، فأين أبيت ليلتي؟... استطعت القفز من فوق الجدار الحجري الأملس، حاملاً الرغيفين، وإلى التواليت على الرصيف.

حيث وقفت هناك قليلاً، لم يكن ثمة من يلاحقني. خرجت كأنني راكب، جندي. وبالمصادفة فقد كان قطار فلاديفستوك-، موسكو واقفاً على السكة. هناك ازدحام كبير على الماء الساخن، فترى الركاب حاملين القدور، وهم

يتدافعون. كلُ يريد أن يحصل على الماء الغالي قبـــل انطـــلاق القطار، ورأيت فتاة في كترة زرقاء، تحمل إبريق شاي، ســـعة ليترين، وهي تدور في المكان، ولا تجرؤ على الاقتراب من قدر الماء الغالي. قلت لها "هاكِ رغيفيَّ، الآن سأجلب لــــك المـــاء الغالي"، و لم أكد أنتهي مِن تعبئة الإبريق حتى تحرك القطار، أما هي فراحت تبكي، وهي تمسك برغيفيَّ، لا تعرف ماذا تفعل بهما، أما بالنسبة لإبريق الشاي، فكانت سعيدة بالتخلي عنه. وصحت بها:"اركضي، اركضي، سألحق بـــك"، فجـــرت، وجريت خلفها، ولحقت بالقطار، ساعدتها على الصعود إليـــه بإحدى يدي، ثم أمسكت بقبضة الباب، ووضعت قدمي على درجة السلم. لم يضربني المرافق على أصابعي، و لم يـــدفعني في صدري: فقد كان ثمة مقاتلون آخرون في العربة، ولقد ظـــن أنني واحد منهم.

هنا دفع شوخوف سينكا في خاصرته: هاك أكملها، فأنت لا تقتنص الفرص". أعطاها له مع المبسم الخشبي، فليمـــصه، لابأس في ذلك. أما سينكا العجيب، فبدا كما الممثل: ضـــغط بإحدى يديه على قلبه، وهز برأسه. طيب، وماذا تنتظر مـــن أطرش...

ويتابع الرئيس روايته:

كُن ست فتيـــات في القمـــرة المغلقـــة، إنهـــن طالبـــات لينينغراديات، عائدات من التدريب العملي. علـــى الطاولـــة الصغيرة كانت لديهن قطعة زبدة، وكانت معاطفهن الرقيقـــة تتأرجح على الخطاطيف، أما حقائبهن فكانت داخل أكياسها، تبادلنا أطراف الحديث، مزحنا، وشربنا الشاي سوية. وحـــين سألنني: من أي عربة أنت؟ أطلقت زفرة، وصارحتهن: إنـــي

من تلك العربة يا بنات، إن الحياة أمامكن، بينما الموت يتربص بي أنا...

كان الصمت المطبق يلف الورشة. والمدفأة تتوهج.

تأوهن دهشة وخوفاً، وتشاورن... ومع هذا فقد خبأنني تحت المعاطف، فوق الرف الثالث. حينها كان المفتشون يطوفون على القمرات برفقة المخابرات.

لم يكن الموضوع موضوع تذاكر سفر، بل موضوع النجاة بجلدك.

وصلنا إلى نوفوسيبيرسك بسلام... بالمناسبة لقد صادفت إحدى هاته الفتيات، فيما بعد، على نهر بيتشورا، رددت لها الجميل: ففي عام خمسة وثلاثين وجدت نفسها في عداد المنفيين إلى كيروف، وراحت تقوم بأعمال السخرة، ولقد وضعتها في ورشة الخياطة.

- ربما نبدأ الجبل؟، سأل بافلو الرئيس همساً.

لكن الرئيس لم يسمع.

- وصلتُ البيت تحت جنح الظلام، عن طريق الحواكير. كان والدي قد رُحّل، بينما كانت والدتي وأخوتي الصغار بانتظار الترحيل، وكانت قد وردت برقية بخصوصي، ومجلس القرية يبحث عني لأخذي، جلسنا، ونحن نرتجف من الخوف، في العتمة، خلف الجدار، لأن النشطاء كانوا يجوبون القرية، ويتلصصون من النوافذ، وفي الليلة نفسها أخذت أخي الصغير، وحملته إلى المناطق الدافئة- إلى مدينة فرونزوي. و لم يكن لدي ما أسد به رمقه، أو رمقي. وفي فرونزي كنت أسخن الإسفلت في المرجل، وعصابة من الفتيان المشبوهين يتحلقون

من حولي. فجلست بجوارهم وقلت: "اسمعوا يا شباب. خذوا أخي وعلموه، علموه كيف يعيش".

فأخذوه... وكم أتمنى لو أنني أنا نفسي انضممت إلى زمرة الحرامية هذه.

- أولم تر أخاك بعد ذلك أبداً؟، سأل الضابط.

و تثاءب تيورين:

- لا. لا لم ألقه أبداً، ثم تثاءب من جديد، وأضاف: حسن، لا تحزنوا يا شباب، لسوف نألف العيش حتى في المحطة الكهرحرارية. من سيقوم بعملية الجبل، ابدأوا، لا تنتظروا الصافرة تلكم هي المجموعة. فالقائد عاجز عن زحزحة العامل من مكانه حتى في الوقت المخصص للعمل، أما رئيس المجموعة، فيكفي أن يقول، حتى في وقت الاستراحة، اعملوا، حتى يبدأ العمل على قدم وساق. لأن رئيس المجموعة هو الذي يطعمهم، وهو لن يرغمهم على العمل عبثاً.

إذا ما انتظروا الصافرة حتى يبدأوا الجبل، فماذا يفعل البناؤون، هل يقفون؟.

أخذ شوخوف نفساً، ثم نهض:

- إنني ذاهب لتقطيع الجليد.

ومن أجل الجليد أخذ معه المطرقة والمكنسة، أما من أجل البناء فأخذ مطرقة التشذيب، والعدة والخيط والزيج.

نظر كيليديغس المتورد إلى شوخوف، وتلوى، ما الداعي للوثوب قبل رئيس المجموعة؟. لكن كيلدفس غير مسؤول عن إطعام المجموعة: إذ تكفيه، هو الأصلع، حتى المئتا غرام المخصصة، لا بل وأقل من ذلك، بفضل الطرود، التي تأتيه.

ومع هذا فها هو ينهض، إنه يدرك أنه لا يجوز أن يتسبب في تأخير المجموعة.

- انتظر يا فانيا، سوف أذهب معك.

آه منك يا سمين الخدين، لو أنك كنت تعمل لمصلحتك، إذن لنهضت قبل ذلك.

(ثم إن شوخوف كان في عجلة من أمره، كي يسبق كيلديغس في أخذ زيج البناء، فلم يأخذوا من قسم العدة إلا زيجاً واحداً).

وسأل بافلو رئيس المجموعة:

- هل نكفي نحن الثلاثة؟ هل ترسل لنا رابعاً؟.

أطرق الرئيس، وفكر ملياً:

- سأكون أنا الرابع يا بافلو. أما أنت فاهتم بالجبلة. الصندوق كبير، ضع ستة أشخاص. من هذا النصف يؤخذ الاسمنت الجاهز، وفي النصف الآخر يتم تحريك الجبلة الجديدة. لا أسمح بدقيقة استراحة.

- إيه!- قفز بافلو، وهو لا يزال في شرخ الشباب. دمه فوار، لم ينل منه المعسكر بعد- أنت سوف تصب، وأنا سوف أجبل. وسوف نرى من ينجز أكثر! أعطوني الرفش الأطول.

يا لها من مجموعة. كان من شأن بافلو أن يصبح قاطع طريق في الغابات، ويغير على القرى، تحت جنح الظلام، وما كان ليرضى أبداً بالعمل هنا! لكن الأمر مختلف مع المجموعة.

صعد شوخوف وكيلديغس إلى فوق. وسمعا السلم يزقزق تحت وقع أقدام سينكا.

صحيح أنه أطرش، لكنه فطن.

في الطابق الثاني بدأت ترتفع جدران البناء، حيث تطالعك في كل مكان بثلاثة صفوف، وأعلى من ذلك، في أماكن نادرة. وهذه المرحلة من البناء هي الأسهل- من الركبة حتى الصدر. حيث لا تحتاج إلى السقالات.

وأية سقالات كانت هنا في الماضي، وحتى السلالم- لكن المعتقلين نهبوها كلها: بعضها حُمل إلى أبنية أخرى، وبعضها الآخر أضرموا فيه النار، المهم أن لا تكون من نصيب المجموعات الأخرى. والآن من الواضح أنه لابد من صنع السلالم غداً، و إلا توقف العمل.

من أعلى ترى على مدِ النظر: كل المنطقة، من حولك، مغطاة بالثلج، مهجورة (المعتقلون مختبئون، إنهم يتدفأون، بانتظار الصافرة)، وترتفع أبراج المراقبة السوداء، والأعمدة ذات النهايات الحادة. والتي ربطت إليها الأسلاك الشائكة.

إن بالا مكان أن ترى الأسلاك من الجهة المعاكسة للشمس، أما من جهة الشمس فلا تراها، فالشمس ساطعة جداً، فلا تستطيع أن تنظر ناحيتها مفتح العينين.

ومن بعد أيضاً يبدو قطار الطاقة، إنه يدخن، ويملأ الجو بالسخام، وهو يتنفس بصعوبة. لديه دائماً بحة قوية، قبيل الصافرة. وها هو ذا يصفر. لم يعملوا وقتاً إضافياً طويلاً.

- هيه أيها الستاكاني[8]، هلا أسرعت في التحكم بالزيج، استحثه كيلديفس.

وسخر منه شوخوف يدوره:

---

[8] يقصد الستاخاني، نسبة إلى العامل ستاخانوف الذي ضرب رقماً قياسياً في المنافسة الاشتراكية في العمل. والكاتب هنا يسخر من هذه المنافسة. / المترجم

- هلا نظرت إلى جدارك، كم عليه من الجليد! هل ستزيل الجليد عنه، قبل حلول المساء؟، لو أنك لم تأخذ المسيعة عبثاً معك' إلى فوق.

أرادوا أن يتوزعوا على الجدران، كما تم تــوزيعهم قبــل الغداء، لكن رئيس المجموعة صاح هم من الأسفل:

- هيه يا شباب! لكي لا يتجمد الإسمنت في الــصناديق، دعونا نقف اثنين، اثنين. شوخوف، خذ معك كليفشين، أما أنا فسأعمل مع كليديغس.

- والآن سيقوم غوبتشيك، بدلاً عني، بتنظيف الجدار عند كليديغيس.

تبادل شوخوف وكيلديفيس النظرات. إنه رأي صــائب، حيث سيكون العمل على هذا النحــو أســرع. وامتــشقوا المطارق.

ولم يعد شوخوف يرى البحيرة البعيــدة، حيــث تــسطع الشمس على الثلج، ولا كيف غادر العمال أماكن الــدفء، وتوزعوا عبر أرجاء المنطقة- بعضهم لفتح الحفر، التي بدأوها منذ الصباح، وبعضهم لنصب الهيكل، وبعضهم الآخر لرفــع العوارض على السقالات.

لم يكن شوخوف يرى سوى جداره- من الطرف الأيسر، حيث يرتفع البناء درجات فوق الحفر، إلى اليمين حتى الزاوية، حيث يقوم الجزء الذي بناه مع كيلديغس. دل سينكا علــى المكان الذي يجب تنظيفه من الجليد، وراح هو يفتت الجليــد برأس المطرقة تارة، وبحدها تارة أخرى، فكان فتات الجليــد يتطاير من حوله، وعلى وجهه، وهو حاذق في هذا العمــل، لكنه يقوم به بشكل آلي. كان تفكيره ونظره يتلمسان مــن

تحت الجليد الجدار الخارجي للمحطة، المبني ببلوكتين. وكان هذا المكان من الجدار قد بدأه بنَّاء لا يعرفه، فجاء سيئاً، إمـا عن جهل، وإما غشاً، والآن على شـوخوف أن يـصححه، ليأتي متناغماً مع جداره هو، فهنا توجد وهـدة، ولا يمكـن تسويتها بصف واحد، بل لابد من ثلاثة صفوف، يتم في كل منها وضع كمية أكبر من الطينة. أما ها هنا فقد برز الجـدار كما الكرش- إن تقويم هذا البروز يحتاج إلى صفين. وقـسم شوخوف الجدار بعلامة غير مرئية- إلى أين سيبني، بدءاً مـن الطرف الأيسر المتدرج، ومن أين سيبني سينكا مـن جهـة اليمين، حتى يلتقي مع كيلديغس. وكان يأمل أن كيلديغس لن يتوانى -و هناك في الزاوية، عن مد يد العون لسينكا، فيخـف العبء عنه هو. وبينما يتلكأ هـذان في الزاويـة، سـينتهي شوخوف من بناء نصف الجدار، لكي لا تتأخر زمرتنا، وحدد لنفسه كم من الأحجار سيضع، وأين. وما إن صعد حـاملو الأحجار إلى فوق، حتى صاح أليوشكا:

- هات لي. ضعها هنا! وهنا.

كان سينكا يفتت الجليد، وأما شوخوف فتناول المكنـسة، المصنوعة من الأسلاك الفولاذية، وقبض عليها بيديه الاثنتين، ثم راح يحركها عبر الجدار، جيئةً وذهاباً، محاولاً تنظيف الـصف الأول من الأحجار، إن لم يكن تنظيفاً تاماً، فإزالـة البيـاض الثلجي الخفيف على الأقل، وخاصة بين الشقوق.

وصعد رئيس المجموعة، بدوره إلى فـوق، بينمـا كـان شوخوف يحرك مكنسته، ثبت رئيس المجموعة القدة في الزاوية، أما من ناحية شوخوف، ومن ناحيـة كيلـديغس، فكانـت القدتان مثبتتين من زمان.

- هي – صاح بافلو من الأسفل– من منَ الشباب فوق؟، ارفعوا الطينة.

قرر شوخوف أن لا يمد الخيط للصف الأول ولا الثاني، بل لثلاثة صفوف دفعة واحدة، ولكي يسهل الأمر على سينكا، سوف يساعد في بناء جزء من الصف الخارجي، على أن يترك له جزءاً صغيراً من صفه الداخلي.

راح، وهو يشد الخيط على الزيج العلوي، يشرح لسينكا، بالكلام والإشارات، أين يبني. وفهم الأطرش. فعض على شفتيه، وزر عينيه، وهز رأسه باتجاه جدار الرئيس. وكأنه يسأل، هل نبدأ؟ لن نختلف، ويضحك.

وفي هذا الوقت كانت الطينة تنقل عبر السلم. وسوف يقوم بنقل الطينة أربعة أزواج. وقرر الرئيس عدم وضع أية صناديق طينية، قرب البنائين. فالطينة سوف تتجمد بسبب دلقها، من وعاء في آخر. والآن سوف يأخذ البناؤون الطينة اللازمة من على الحمالات، إلى الجدار مباشرة. وفي هذا الوقت يقوم المكلفون بنقل الطينة، كي لا يتجمدوا في الأعلى دون فائدة، برفع الأحجار. وما إن تفرغ الحمالة حتى يندفع الزوج الثاني من الأسفل، دون توقف، بينما يهرع الزوج الأول نازلاً.

وهناك يضع الحمالة، قرب المدفأة، لكي تذوب الطينة المتجمدة قليلاً، بينما يتدفأ قدر المستطاع.

جلبوا حمالتين، دفعة واحدة لجدار كيلديفس والأخرى لجدار شوخوف. الطينة تتبخر في الصقيع، وينطلق منها الدخان، لكن الدفء فيها لا يذكر. وإذا ما تأخرت قليلاً في مدها على الجدار فإنها تتجمد، فتضطر حينها إلى تفتيتها برأس المطرقة، أما المسيعة فغير قادرة على ذلك. وإذا ما أخطأت

قليلاً في وضع البلوكة، فإنها تتجمد وهي مائلة، فتضطر إلى تكسيرها، برأس الفأس، وإلى تفتيت الطينة.

لكن شوخوف لا يخطيء، فالبلوكات ليست كلها واحدة. بعضها بزاوية مكسورة، وبعضها بضلع مكرمش، أو بارز، وللحال يرى شوخوف ذلك ويقدر، كيف يجب أن توضع هذه البلوكة، والمكان الأنسب لها في الجدار.

يأخذ شوخوف بالمسيعة الطينة المجلببة بالدخان، ويضعها في المكان اللازم، ويتذكر أين يقع الفاصل السفلي بين البلوكتين، (فعلي هذا الفاصل سيتم وضع منتصف البلوكة العلوية لاحقاً). وهو لا يضع من الطينة إلا الكمية اللازمة لكل بلوكة.. ثم يتناول بلوكة من الكومة (لكنه يتناولها بكل حذر، كي لا تمزق القفاز، ولا تجرح يده). وبعد أن يضع اللمسة الأخيرة على الطينة، تستقر البلوكة، في مكانها. وعلى الفور، في الحال يجب أن تسوى، فتضرب بحد المسيعة بخفة إذا ما دعت الحاجة: بحيث يتطابق الجدار الخارجي مع الزيج، وبحيث تكون الطوبة مستقرة بشكل منبسط في الطول والعرض. والآن أصبحت في غاية المتانة.

وفي حال بروز الطينة من تحتها، فلا بد من إزالة هذه الطينة، بحد المسيعة، وعلى جناح السرعة، ورميها بعيداً (في الصيف تستخدم هذه الطينة البارزة للطوبة التالية، أما الآن فهذا غير وارد أبداً)، ومن جديد لابد من النظر إلى الفاصل السفلي، فقد تكون البلوكة مفتتة قليلاً، وعندها لابد من وضع القليل من الطينة، ومسحها من اليمين إلى اليسار، وبعدها لابد من النظر إلى الزيج. فإذا كان كل شيء على ما يرام، تنتقل إلى البلوكة الجديدة.

كان العمل يجري على قدم وساق.وما إن ننتهي من بناء الصفين، ونسوي الشوائب القديمة، حتى يصبح العمل في منتهى السهولة. أما الآن فلابد من اليقظة والحذر.

وراح شوخوف يدفع الصف الخارجي، ويدفعه باتجاه سينكا. وبدوره كان سينكا يعمل في الزاوية مع رئيس المجموعة، بكل همة ونشاط، وهو بدوره يتحرك للقاء شوخوف.

وغمز شوخوف الحمالين بطرف عينه، أن هاتوا الطينة، هاتوها، بسرعة. كان دولاب العمل يدور ويدور،بحيث لا تجد الوقت لحك أنفك.

ومإن التقى شوخوف وسينكا، وبدآ يغرفان من صندوق واحد، حتى ظهر قعر الصندوق.

- طينة!- زعق شوخوف، من وراء الجدار.

- حالاً!- صاح بافلو.

جاءت الحمالة، فغرفوا منها كل ما كان سائلاً. أما ما تجمد على الجوانب، فتركوه للحمالين، ليزيلوه بأنفسهم، وإلا تضاعف حجمه، فهم من يحمله إلى الأعلى والأسفل. هيا، الحمالة التالية.

لم يعد شوخوف والبناؤون الآخرون يشعرون بالصقيع. فبسبب العمل السريع، الذي استولى عليهم، دبت في أجسادهم الحرارة الأولى- تلك الحرارة التي تجعل الجسم، تحت المعطف، وتحت السترة، وتحت القميصين العلوي والداخلي، يتصبب عرقاً. لكنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة، بل استمروا في البناء، واستمروا. وبعد مرور قرابة الساعة، دبت في أجسامهم الحرارة الثانية تلك الحرارة، التي تؤدي إلى تجفف العرق. المهم

أن البرد القارس لم يصل إلى أقدامهم، أما الباقي فليس مهماً، وليست النسمات الخفيفة القارسة بقادرة على صرف انتباههم عن عملية البناء.

وحده كليفشين لم يكن يكف عن ضرب قدميه ببعضهما، فقياس رجلي المسكين ست وأربعون، وجزمة اللبـــاد، الـــتي أعطيت له ضيقة، وكل فردة منها مختلفة عن الأخرى.

بين الفينة والأخرى يصيح رئيس المجموعة: "طـــي- نـــة"، وبدوره يصيح شوخوف: "طي-نة". إن من يـــتقن عملـــه، يصبح لا أقل من رئيس مجموعـــة بالنـــسبة لجيرانـــه. كـــان شوخوف يبذل قصارى جهده، لكي لا يتخلف عن منافسه، وما كان الآن ليتورع عن إنهاك أخيه، مـــن لحمـــه ودمـــه، صاعداً،ونازلاً السلم، حاملاً الطينة.

في البداية، بعد الغداء، كان بوينفسكي ينقل الطينـــة مـــع فيتيوكوف. وعبر السلم الضيق، وغـــير المـــريح، ولم يكـــن بوينفسكي سريع الحركة في البداية، فراح شوخوف يستعجله:

- أيها الضابط استعجل، استعجل.

ومع كل نقلة يزداد الضابط نشاطاً،بينما يزداد فيتيكـــوف خمولاً وكسلاً، فتراه، ابن الحرام، يميل الحمالة قليلاً، ويـــدلق كمية من الطينة، لكي يصبح الثقل أقل.

وضربه شوخوف في ظهره:

- آه منك يا نصاب. لاشك أنك كنت صارماً في معاملة مرؤوسيك حين كنت مديراً.

ويصيح الضابط البحري:

- يا رئيس المجموعة، ضعني مع إنسان! لن أستمر في الحمل لهذا ال...

وقام رئيس المجموعة بالتغيير: فقد كلف فيتيوكوف برفع البلوكات إلى السقائل، بحيث يمكن إحصاء كمية البلوكات، التي رفعها، أما أليوشا المعمداني فقد نقل للعمل مع الضابط البحري. وأليوشا إنسان هادىء جداً ومسالم، مجبول على الانصياع للأوامر.

ويحثه الضابط البحري

- استنفار. أسرع، ألا ترى إلى البناء كيف انطلق.

ويبتسم أليوشا موافقاً:

- إذا كنت تريد أن أسرع، فسأعمل كما تريد.

وجريا نحو الأسفل.

كل شيء يجري على ما يرام في المجموعة.

ويصيح رئيس المجموعة منادياً أحدهم من تحت.

يبدو أن شاحنة أخرى تحمل الأحجار قد وصلت. والغريب أنه منذ نصف عام لم تأت واحدة، وها هي الآن تأتي واحدة، إثر أخرى. إنهم الآن لا عمل لهم إلا نقل الأحجار، إنه اليوم الأول، فيما بعد سوف يحل الركود، وتتباطأ وتيرة العمل.

وأطلق رئيس المجموعة الشتائم نحو الأسفل. شيء ما بخصوص الرافعة، إن بود شوخوف أن يعرف جلية الأمر. لكن الوقت لا يسمح، فلابد من تسوية الجدار. وحين جاء الحمالان أخبراه أن الكهربائي جاء لإصلاح محرك الرافعة، يرافقه المشرف على الشؤون الكهربائية، وهو من الأحرار.

الكهربائي يفحص الرافعة، ورئيس الفرقة يتفرج. وهذا هو المطلوب: البعض يعمل، والبعض يتفرج.

لو يتمكنون من إصلاح الرافعة الآن، إذن لأصبح بالا مكان رفع الأحجار والطينة.

بدأ شوخوف الصف الثالث (وكيلديغس بدأه أيضاً)، حين ارتقى السلم، رئيس جديد آخر - إنه دير، رئيس فرقة العمال لشؤون البناء، موسكوفي، يقال إنه عمل في الوزارة.

كان شوخوف يقف غير بعيد عن كيلديغس، وقد أشار له إلى دير.

- آ آ- قال كيلديغس- لا علاقة لي بالقيادة، وإجمالاً، فقط في حال سقط عن السلم، عندها يمكن أن تنادي.

الآن سوف يقف خلف البنائين، ويراقب، إن شوخوف لا يطيق أمثال هؤلاء المراقبين. إنه يخال نفسه مهندساً، ويحشر نفسه في كل عمل، فنطيسة الخنزير هذا. وفي ذات مرة راح يعرض علي شوخوف طريقة بناء الأحجار، فقهقه شوخوف منه ساخراً. إننا نعتقد أنك ستصبح مهندساً، إذا بنيت بيتاً بيديك.

لم تكن البيوت الحجرية معروفة في تيمغينوفو، وكانت كل البيوت من الخشب. وحتى المدرسة مبنية من الأخشاب التي جلبوا منها ستة ساجينات[٩].

وفي المعسكر دعت الحاجة إلى بنّاء- فعمل شوخوف بناءً. إن من يُجِد استخدام يديه في عملين، قادر على القيام بعشرة أعمال أخرى.

كلا، لم يسقط دير، وإن كان تعثر مرة. لقد صعد إلى الأعلى بسرعة تكاد تكون جرياً.

- تيورين- صاح، وقد جحظت عيناه-تيورين. وفي أعقابه هرع بافلو عبر السلم، وهو لا يزال حاملاً الرفش.

---

[٩] الساجين: وحدة قياس روسية قديمة تعادل ٢,١٣م. /المترجم.

إن معطف دير من المعسكر، لكنه جديد، ونظيف، وقبعته جلدية، ممتازة، وذات الرقم، كما لدى الجميع: ب-٧٣١.

- ماذا تريد؟ خرج تيورين للقائه، والمسيعة في يده، وقد مالت قبعته الرئاسية، فغطت إحدى عينيه.ثمة شيء ما، غير عادي، شيء لا يمكن تفويته، لكن الطينة تتجمد في القصعة، فيتابع شوخوف وضع الطينة، يتابع وقد تحول إلى آذان صاغية.

- ما هذا الذي فعلت؟- يصرخ دير، فيتناثر اللعاب من حوله- هذا عقوبته الانفرادي، إنها قضية جنائية يا تيورين. ولسوف تحصل على مدة اعتقال ثالثة.

الآن فقط أدرك شوخوف جلية الأمر، وإذ التفت ناحية كيلديفس، أدرك أنه قد فهم الأمر بدوره، إنه الورق القطراني. لقد رأى الورق القطراني على النوافذ.

لم يكن شوخوف يخاف على نفسه أبداً، فالرئيس لن يتخلى عنه. لكنه يخاف على الرئيس نفسه. إن الرئيس بالنسبة لنا، نحن معشر المعتقلين، هو أبونا، أما بالنسبة للرئاسة فهو مجرد بيدق. إن الرئيس يمكن أن يحصل بكل سهولة على مدة سجن ثانية في الشمال لقاء ذلك.

أوخ كم تعوج وجه الرئيس! وبأية قوة ألقى بالمسيعة أرضاً، واندفع نحو دير. وتلفت دير، فرأى بافلو يرفع رفشه عالياً.

ليس عبثاً أنه جاء حاملاً الرفش.

وحتى سينكا، على الرغم من طرشه، أدرك جلية الأمر، فتقدم بدوره، ويداه ممسكتان بخاصرتيه، وهو قوي البنية، عفريت.

راح دير يرمش بعينيه، وبدأ يشعر بالقلق، وراح يبحث عن مكان يلجأ إليه.

انحنى الرئيس على دير، وقال له بصوت خافت، لكنه وصل جلياً إلى هنا، في الأعلى:

- لقد انتهى الوقت الذي كنت تعطي فيه المدد يا تافه، وإذا ما نطقت بكلمة واحدة يا مصاص الدماء، فإنه سيكون آخر يوم في حياتك، تذكر.

كان الرئيس يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، وظلت الرجفة متشبثة به، لا تهدأ أبداً.

وبافلو ذو الوجه المدبب، كان يحدق بدير، يريد أن يلتهمه.

- أبداً. أيداً، ما بكم يا شباب- شحب وجه دير، وابتعد عن السلم.

لم يضف الرئيس شيئاً، بل صحح قبعته، ورفع المسيعة العقفاء، وعاد إلى جداره.

وبدوره نزل بافلو إلى الأسفل ببطء، حاملاً رفشه، ببطء...

نعم...

وجد دير نفسه في موقف حرج، فهو يشعر بالخوف من البقاء، بالخوف من النزول، وهكذا فقد اختبأ خلف كيلديفس، وظل واقفاً.

ويتابع كيلديفس عمله بكل هدوء، وقد أدار ظهره لدير، وكأنه لم يره أبداً.

ويتسلل دير إلى الرئيس، وقد تلاشت غطرسته كلها:

- ماذا أقول للمشرف يا تيورين؟.

ويستمر الرئيس في عمله، دون أن يلتفت برأسه:

- قل له إن الوضع كان هكذا، إن الورق كان موجــوداً حين جئنا.

انتظر دير قليلاً، كان من الواضح أنهم لا ينوون قتله الآن، فتمشى بهدوء، وقد دس يديه في جيبيه.

- هيه أنت يا شي ثمانيمائه وأربعة وخمسين، لمـــاذا تـــضع الطينة بهذه الطبقة الرقيقة؟.

كان دير بحاجة لأن يثأر من أحدهم. لكن عمل شوخوف كان جيداً، لا عيب فيه. أما هو فرأى أنه بطبقة رقيقة.

لثغ شوخوف ساخراً:

- إسمح لي أن أقول إنه إذا ما وضعت طبقة سميكـــة مـــن الطينة الآن، ففي الربيع سوف ترشح هذه المحطة كلها.

- إنك مجرد بنّاء، فاسمع ما يقول لك رئيس فرقة العمال-

عبس دير، وانتفخت أوداجه، وهي عادة لديه.

ربما تكون رقيقة في بعض الأماكن فعلاً، وكان بالامكـــان جعلها أكثر سماكة، لكن هذا إذا ما كان البناء ليس شتاء، وفي ظروف إنسانية، كما يجب أن يرثـــى للنـــاس، إن الحـــصيلة ضرورية. لكن ماذا تشرح له إن كان لا يفهم!.

وتابع دير طريقه عبر السلم، بهدوء.

وجاءه صوت الرئيس من فوق:

- لو أنك تصلح لنا الرافعة. فهل نحن حمير، كـــي نرفـــع الأحجار بأيدينا إلى الطابق الثاني!.

فرد عليه دير بهدوء:

- إنهم يدفعون لك لقاء الرفع.

- بعربات اليد؟ طيب جرب أن تجعل عربة اليد تسير على السلم. ادفعوا بالرفع على الحمالات.

- وهل أنا ضد ذلك؟ إن المحاسبة لا توافق على الدفع بالرفع على الحمالات.

- المحاسبة! كل المجموعة لدي تعمل في خدمة أربعة بنائين. فكم سأكسب من ذلك؟- يصيح الرئيس، وهو يتابع عملية البناء، دون توقف.

- طي- نة- يصيح نحو الأسفل.

- طي- نة- يعقبه شوخوف.

كل شيء تمت تسويته في الصف الثالث، ويجب الانتقال إلى الرابع. من الأفضل رفع الخيط، بمقدار صف واحد، لكن لابأس، سنبني الصف الرابع. بدون خيط، لا ضير في ذلك.

سار دير عبر الحقل، وقد تقنفذ. إنه يقصد المكتب طلباً للدفء. إنه مستاء بالطبع، لكن لابد من التفكير ملياً قبل مهاجمة ذئب مثل تيورين. لو أنه يجد لغة مشتركة مع رؤساء مجموعات من هذا النوع، إذن لما عرف همّاً: فهو غير مطالب بالعمل القاسي، وحصته من الطعام عالية، ويعيش في مكتب مستقل- فماذا يريد أيضاً؟ هكذا، إنه يحب الظهور.

جاءوا من تحت يقولون: إن مدير أعمال الصيانة الكهربائية قد انصرف، وكذلك الكهربائي، وإن الرافعة غير قابلة للتصليح.

إذن سنستمر بالعمل كما الحمير.

كم مرَّ على شوخوف من مشاريع، وفيها كلها تتعطل الآليات، إما من تلقاء نفسها، وإما على يد المعتقلين.

فآلة جز الأخشاب كسروها: وضعوا وتداً في السلسلة وشغلوها، فتحطمت، لكي يرتاحوا من وتيرة عمل الآلة السريعة.

- أحجار، أحجار- يصيح الرئيس، وهو يسب ويشتم المناولين والناقلين.

- بافلو يسأل، ماذا بشأن الطينة؟ - يصخبون في الأسفل.

- هل يجبل؟.

- بقي من المجبول نصف صندوق.

- إذن نحتاج إلى صندوق آخر.

كان العمل يجري على قدم وساق، فها قد بدأوا الصف الخامس، عند بناء الصف الأول كانوا يضطرون إلى القرفصة، أما الآن فقد وصل البناء إلى مستوى الصدر. ولا غرابة في ذلك فليس ثمة من نوافذ ولا أبواب، مجرد جدارين متلاصقين، ووفرة من الأحجار. كان لابد من مد الخيط، لكن فات الوقت، وأعلن غوبتشيك:

- المجموعة اثنتان وسبعون ذهبت لتسليم العدة.

ألقى عليه الرئيس نظرة غاضبة:

- إهتم بعملك أيها الفطر! هات الطوب.

التفت شوخوف. فعلاً الشمس تميل إلى المغيب. إنها حمراء، ملفعة بضباب، يبدو وقد وخطه الشيب. كان من الأفضل لو لم نعمل بسرعة. وما دمنا قد بدأنا الخامس، فسوف ننجزه.

كان حملة الطينة يلهثون كالخيول المرهقة. حتى الضابط البحري أصبح رمادي اللون. علماً أن عمره بحدود الأربعين.

البرد يزداد حدة. اليدان غارقتان في العمل، لكن البرد القارس ينفذ إلى الأصابع، عبر القفازين الباليين. كما ينفذ إلى القدم اليُسرى، عبر الجزمة المعطوبة. ويروح شوخوف يخبط بقدميه طلباً للدفء.

لم تعد هناك حاجة الآن للانحناء فوق الجدار، لكن لابد الآن من الانحناء لرفع كل حجر، ولأخذ كل ملعقة من الطينة.

- يا شباب، يا شباب، لو أنكم ترفعون الأحجار إلى أعلى الجدار.

بود الضابط البحري أن يقوم بذلك، لكنه غير قادر، فهو غر في هذه الأعمال. أما أليوشا فيقول:

- حسناً يا إيفان دينيسيتش، أين أضعها، دلني.

يا له من مطيع هذا الأليوشكا، لا يرد لك طلباً. لو أن الجميع في العالم كانوا مثله، إذن لكان شوخوف مثله أيضاً.

إذا كان الإنسان يطلب منك، فلماذا ترده خائباً؟ هذا هو مبدؤهم.

تردد الرنين على السكة في أرجاء المنطقة، ووصل إلى المحطة جلياً، يعلن نهاية يوم العمل. لقد تسرعا في الجبل.

- هات الطينة، هات الطينة- يصيح الرئيس.

إن هناك صندوقاً كاملاً جُبل للتو، والآن لابد من متابعة العمل، فلا يوجد مخرج آخر: إذا لم يستخدم هذا الصندوق اليوم فسوف يكون مصيره التلف، حيث ستتجمد الطينة، ولن يكون بالإمكان تفتيتها، حتى بالفأس.

- هيا يا أخوان، لا تتقاعسوا- نادى شوخوف.

استبد الغضب بكيلديغس، فهو لا يحب الاستعجال. الجميع لديهم، في لاتفيا- كما يقول- يعملون بتؤدة. وكل شيء على ما يرام لديهم. لكنه الآن مضطر للعمل بهذه الوتيرة، فما في اليد حيلة.

ومن الأسفل جاء بافلو على عجل، حاملاً الطينة، والمسيعة في يده، وشرع بالبناء.

والآن أسرع شوخوف في مواصلة سد الثغـرات، فيقـوم بقياس إحدى الطوبات بالنظر ليعرف إن كانت تصلح لـسد الثغرة، ثم يدفعها لأليوشكا بالمطرقة بخفة:

- هاك، سوها لي، سوها.

السرعة لا تنجب عملاً جيداً. والآن عندما اندفع الجميـع يعملون بسرعة، لم يعد شوخوف يسرع، بل راح يـتفحص الجدار.

دفع سينكا ناحية اليسار، أما هو فاتجه ناحية الـيمين، إلى الزاوية الرئيسية، فأي خطأ الآن في بناء الجدار، أو الزاوية هو مصيبة، وسيؤدي غداً إلى هدر نصف اليوم من أجل إصلاحه.

- قف! أبعد شوخوف بافلو عن الطوبة، وراح يـضبطها بنفسه. ومن هناك، من الزاوية، يبدو ان لدى سينكا تقوسـاً، فاندفع نحو سينكا، وسوى طوبتين.

كان الضابط البحري ينقل الحمالة كما الحصان الخـصي، ويصيح:

- بقي حوالي حمالتين.

إن الضابط البحري يكاد يسقط من الإعياء، لكنه يـستمر في العمل.

قبل الكلخوز كان لدى شوخوف حصان خصي من هـذا النوع. فكان يرأف به، لكن ما إن أصبح في أيد غريبة، حـتى أرهقوه بالعمل، فنفق وسلخوا جلده.

غابت الشمس وراء الأفق، والآن أصبح واضحاً، حتى بدون غوبتشيك، أن الأمر لا يقتصر على أن كل المجموعات قـد سلمت عدتها، بل إن جمهرة كبيرة من الناس تندفع نحوبوابـة الدخول. (إن أحداً لا يخرج بعد سماع الجرس مباشرة، فمـن

هو الغبي الذي يريد أن يتجمد هناك! وهكذا يظلون جالسين في الدفء، إلى أن تحين اللحظة، التي يتحرك فيها الرؤساء، وعندها تتدفق المجموعات كلها نحو الخارج. وإذا لم يتحرك الرؤساء فإن المعتقلين، وهم في غاية العناء، سيظلون يتخاطفون الأمكنة الدافئة، حتى منتصف الليل).

وثاب تيورين إلى رشده، ورأى بنفسه انه تأخر كثيراً، ولاشك أن المسؤول عن العدة أوسعه شتماً.

- كفى! هيا إلى تحت،أفَرغوا الصندوق الكبير. وخذوا بقايا الطينة إلى تلك الحفرة هناك، ثم غطوها بالثلج، بحيث لا يراها أحد. أما أنت يا بافلو فخذ اثنين، واجمع العدة، ثم سلموها، فيما بعد سأرسل لك ثلاث مسايع مع غوبتشيك حال الانتهاء من هاتين الحمالتين الأخيرتين.

تدافعوا. اخذوا المطرقة من شوخوف، وفكوا الخيط، وجرى الحمالون المناوبون إلى الأسفل، حيث يتم الجبل، فلم يعد لديهم ما يفعلونه هنا. وفي الأعلى بقي البناؤون الثلاثة- كيلديغس، كليفشين وشوخوف، بينما راح الرئيس يتفحص ما أنجزوه اليوم، وهو مسرور.

- لقد أنجزنا الكثير آه؟ وبدون رافعة.

ورأى شوخوف أنه لم يبق في القصعة لدى كيلديغس إلاالقليل، وشعر بالقلق من أن يصب المسؤول عن العدة اللعنات على الرئيس بسبب المسيعات فقال:

- اسمعوا يا شباب. خذوا المسيعات لغوبتشيك ليسلمها. أما مسيعتي فهي لي، ولا داعي لتسليمها، وسأنهي العمل بها.

فيضحك الرئيس:

- وكيف يمكن أن يطلق سراحك؟ إن السجن لا يستطيع التخلي عنك.

ويضحك شوخوف، ثم يتابع البناء.

أخذ كيلديغس المسيعات، وراح سينكا يناول الأحجار لشوخوف، أما ما بقي من طينة كيلديفس، فقد أفرغه في القصعة.

جرى غوبتشيك عبر السهب كله، نحو مستودع العدة ليلحق ببافلو، وسارت المجموعة١٠٤ نفسها عبر السهب، بدون رئيس. إن الرئيس قوة، لكن الحراس قوة أقوى، وسوف يسجلون أسماء المتخلفين، ويرفعوها إلى المراقبة.

تكاثف الازدحام عند المدخل، الجميع جاءوا،ويبدو أن الحراس خرجوا للعد، (يتم العد مرتين: الأولى والبوابة مغلقة، للتأكد من أمكانية فتح البوابة، والثانية أثناء عبور البوابة المفتوحة، وإذا ما حصل أي التباس، يتم العد في الداخل أيضاً.)

ويقول الرئيس ملوحاً:

- لا داعي لتوفير الطينة! ارم بها من فوق الجدار.

- إذهب أيها الرئيس. إذهب، فأنت أكثر ضرورة هناك... (عادةً ما يناديه شوخوف باسم أندريه براكوفيفيتش، أما الآن فقد جعله عمله يتساوى مع رئيسه. كلا هو لا يفكر على هذا النحو "ها أنا قد تساويت"، بل إنه حدسه بأن الأمر كذلك)، ويمزح في أعقاب الرئيس، الذي يترل من على السلم بخطى واسعة:- ما بال يوم العمل قصير إلى هذا الحد؟ لم تكد تنكب على العمل، حتى انتهى الدوام.

بقي شوخوف وحده مع الأطرش. لا يمكن أن يتحدث مع هذا كثيراً، ثم ما الداعي للحديث معه، فهو يبز الجميع في الفطنةو والذكاء، إذ يفهمك بدون كلام.

طينة، حجر، ضغط، ضبط، طينة، حجر، طينة، حجر...

إن الرئيس بدوره أمر بعدم توفير الطينة، وبرميها من فوق الجدار، والانصراف. لكن تكوين شوخوف غبي، وليس بوسع أحد أن يغير فيه. فهو حريص على كل شيء، ولا يمكن أن يفرط بأي عمل، ويجعله يذهب هدراً.

إنه مجبول على البناء والحماقة، ولا يستطيعون لتغييره سبيلاً، فهو حريص على كلٍ شيء وعلى كل جهد يبذل، بحيث لا يذهب أي شيء هدراً.

طينة، بلوكة، طينة، بلوكة.

وصاح سينكا به:

- لقد انتهينا، خلاص.

تناولا الحمالة، ونزلا عبر السلم.

أما شوخوف، فحتى لو طاردته كلاب الحراسة الآن، فقد تراجع قليلاً، وألقى نظرة على الجدار، ثم اقترب قليلاً، وأطل من فوق الجدار، ينظر يمنة ويسرة، كل شيء على ما يرام، إذن فالشيخوخة لم تدب بعد إلى يديه.

وجرى نازلاً عبر السلم.

وبدوره خرج سينكا من غرفة الجبل، وجرى عبر التلة، ثم تلفت، فنادى شوخوف:

- هيا، هيا.

- إجرِ، إنني قادم- لوح شوخوف له، ثم دخل غرفة الجبل. لا يجوز وضع المسيعة كيفما كان. فغداً قد لا يأتي شوخوف

إلى هنا، فقد ترسل مجموعته إلى الضاحية الاشتراكية، وربما قد يمر نصف عام قبل أن يأتي إلى هنا- فهــل يجــوز التفــريط بالمسيعة؟ حسن، حسن.

في غرفة الجبل كانت كل الأفران خامدة، وكــان المكــان مظلماً، يثير الخوف والرهبة. ليس بسبب الظلمــة، بــل لأن الجميع قد انصرفوا، وتأخر هو وحــده، ولــسوف يــضربه الحراس.

ومع هذا فقد حرك حجراً كبيراً في الزاوية، وخبأ المــسيعة تحته، ثم غطاها. الآن كل شيء على ما يرام.

والآن لابد أن يسرع لكي يلحق بسينكا، الذي ابتعد قرابة المئة خطوة، لا أكثر، فكليفشين لا يمكن أن يتخلى عن زميله، وإذا كان لابد من تحمل المسؤولية فمعاً.

جريا متجاورين، أحدهما صغير والثاني كبير، فسينكا أطول من شوخوف بما يعادل رأساًونصف، ثم أي رأس ضخم لديه.

لاشك ان هناك بعض الكسالى، الذين يتسابقون في الملعب بإرادتهم. آه من لي بسوقهم، هؤلاء الشياطين، للسباق بعد يوم عمل كامل، بظهور لا تزال مقوسة، وفي قفــازات مبللــة، وجزمات تالفة، وفي البرد القارس.

كانا يجريان كالكلاب المــسعورة، و لم تكــن تــسمع إلا لهاثهما.

لاشك أن الرئيس سوف يوضح الأمر في غرفة الحراســة، إنهما يجريان باتجاه جمهور المعتقلين، ويشعران بالرهبة.

مئات الحناجر لعلعت دفعة واحدة بالشتائم: على أم كــل منهما وأبيه. من الطبيعي أن تشعر بالخوف حين تجد نفسك في مواجهة خمسمائة شخص.

لكن المهم هو الحراس، كيف سيتصرفون؟.

كلا، لم يعاقبهما الحراس، وها هو ذا الرئيس في الصف الأخير. يوضح كل شيء، ويأخذ المسؤولية على عاتقه.

ويستمر المعتقلون في الصياح وإطلاق الشتائم، كان زعيقهم من القوة بحيث أن سينكا سمع الكثير، والتقط أنفاسه، ثم راح يدمدم من علوه الشاهق! لقد أمضى كل حياته صامتاً، وفجأة راح يهمهم! ورفع قبضتيه، وكأنه على وشك الاندفاع للقتال، فلاذوا بالصمت، إلا البعض استمر يضحك، وصاح أحدهم:

- هيه يا مئة وأربعة! هل هو أطرش حقاً؟ لقد تحققنا من ذلك.

ويضحك الجميع، ويضحك الحراس أيضاً.

- اصطفاف خمسة، خمسة!.

لكن الحراس لا يفتحون البوابة. وراحوا يبعدون الجمهور عنها (كان الجميع قد التصقوا بالبوابة كما الأغبياء، لكأن ذلك من شأنه أن يعجل في فتحها).

- اصطفاف خمسة، خمسة! الخمسة الأولى. الثانية. الثالثة..

وما إن ينادوا إحدى الخمسات، حتى تتقدم عدة أمتار إلى الأمام.

وتلفت شوخوف فرأى البدر، كان بلونه الارجواني المتجهم قد طلع كله، البارحة في مثل هذا الوقت كان أعلى بكثير.

ولما كان شوخوف مسروراً أن كل شيء قد مرَّ على خير، فقد ضرب الضابط البحري في خاصرته، وقال:

- اسمع أيها الرائد، أين يذهب القمر القديم فيما بعد، حسب العلوم لديك؟.

- كيف إلى أين؟ يا له من جهل! كل ما في الأمر أنه يصبح غير مرئي.

ويهز شوخوف رأسه، ثم يضحك:

- إذا كان غير مرئي فكيف تعرف أنه موجود؟.

ويعرب الضابط عن دهشته:

- هل تعتقد أن قمراً جديداً يولد كل شهر؟.

- وما الغريب في الأمر؟ هاهم البشر يولدون كل يوم، أفلا يستطيع القمر أن يولد مرة واحدة في أربعة أسابيع.

- تفوه- بصق الضابط- لم يسبق لي أن قابلت بحاراً بمثل هذه الحماقة. إذن فأين يذهب القديم برأيك؟.

- إنني أسألك عن ذلك إلى أين يذهب- قال شوخوف، ثم كشف عن نواجذه.

- طيب؟ إلى أين؟.

تنهد شوخوف ثم قال بما يشبه الهمس:

- يقولون عندنا إن الإله يفتت القمر إلى نجوم.

- يا للأغبياء- قال الرائد ضاحكاً- لم يسبق لي أن سمعت بهذا، طيب، وهل أنت مؤمن يا شوخوف؟.

- طبعاً- رد شوخوف- حين تسمع هزيم الرعد، جرب أن لا تؤمن.

- طيب ولماذا يقوم الإله بذلك؟.

- بماذا؟.

- بتفتيت القمر إلى نجوم- لماذا؟.

- كل شيء واضح- هز شوخوف كتفيه- فالنجوم تسقط مع مرور الزمن، ولابد من تجديدها.

ويتردد زعيق أحد الحراس:

- هيه أنتما يا أولاد ال... تحركا.

وصل العد إليهما، فقد مرت الخمسة الثانية عشرة من المئة الخامسة، و لم يبقَ غيرهما- بوينوفسكي وشوخوف.

وارتبك الحارس، وهو يتمعن في لوحات العد.

إن العدد ناقص، مرة أخرى لديهم نقص! لو أنهم كانوا يجيدون العد، هؤلاء الكلاب.

لقد أحصوا أربعمائة واثنين وستين، بينما يجب أن يكون الإجمالي أربعمائة وثلاثة وستين.

ومن جديد أبعدوا الجميع عن البوابة (فقد عادوا إلى الالتصاق بها)، وتردد صوت الحارس:

- اصطفوا خمسة، خمسة، الأولى، الثانية.

ومما زاد في التألم من هذا العد وإعادته أنه لا يجري في الوقت الرسمي، بل على حساب المعتقلين. وبعد ذلك لابد من السير عبر السهب للوصول إلى المعسكر، ومن ثم الوقوف في الطابور، أمام المعسكر، وبعد ذلك الوقوف في الاجتماع، لإجراء التفقد. فترى المجموعات تتسابق فيما بينها، كل منها تريد أن تسبق زميلاتها في الانتهاء من التفقد، لكي تكون أول من يدخل المعسكر، فالمجموعة التي تدخل المعسكر قبل غيرها تحظى بالكثير من الامتيازات: المطعم بانتظارها،وهي أول من يذهب لاستلام الطرود، وأول من يسمح له بدخول قسم الأمانات، والمطبخ الشخصي، والبريد لاستلام الرسائل ومكتب التثقيف والتربية، لتسليم الرسائل المرسلة، وإلى النقطة الطبية، وصالون الحلاقة والحمام- في كل مكان ستكون الأولى.

وقد يحدث أن الحراس يستعجلون في تسليمنا- ليعودوا إلى المعسكر بسرعة، فهم بدورهم ليسوا مدللين. لديهم الكثير من الأعمال، والقليل من الوقت. لكن العدد لا يتطابق.

حين راحت الخمسات الأخيرة تمر، خيل لشوخوف أن عددهم في الذيل سيكون ثلاثة، لكن كلا، فهم ما زالوا اثنين.

هرع العدادون إلى رئيس الحرس، حاملين لوحات العد، ثم شرحوا له الأمر، وصاح رئيس الحرس:

- رئيس المجموعة مئة وأربعة!.

تقدم تيورين نصف خطوة:

- حاضر.

- ألم يبق لديك أحد في المحطة؟ فكر ملياً.

- كلا.

- فكر ملياً، وإلا قطعت رأسك.

- كلا، لم يبق أحد.

وألقى في الوقت نفسه نظرة جانبية على بافلو، وكأنه يسأله:

ترى ألم يبق أحدهم هناك في غرفة الجبل؟.

وزعق رئيس الحرس:

- اصطفوا حسب المجموعات.

قبل ذلك كانوا يقفون خمسة خمسة، لا على التعيين. والآن بدأ التدافع والصخب، فهنا يصيحون:

"المجموعة سبعة وستون- إلى هنا، وهناك": المجموعة الثالثة عشرة- إلى هنا". وفي مكان آخر: "المجموعة اثنتان وثلاثون".

أما المجموعة مئة وأربعة فقد بقيت في مكانها في الخلف. ويرى شوخوف أن جميع أفراد المجموعة بأيد فارغة. لقد

انصرفوا، الأغبياء إلى العمل، و لم يجمعوا شظايا الخشب، فقط اثنان كانا يحملان حزمتين صغيرتين.

إن هذه اللعبة تجري كل يوم: فقبيل الانتهاء من العمل، يقوم عدد من أفراد المجموعة بالتقاط الشظايا والعيدان والألواح المكسورة، ويحزموها بقطعة من القماش، أو بحبل، ثم يحملوها. الكبسة الأولى تكون عند البوابة، يقوم بها المشرف على الأعمال، أو أحد رؤساء فرق العمال. فإذا ما كان واقفا هناك، فإنه يأمر برمي كل شيء. (لقد هدروا الملايين، وهم يريدون تعويضها بالشظايا).

لكن لدى المعتقلين حسابهم الخاص: إذا ما جلب كل فرد من المجموعة، ولو حفنة من العيدان، فسوف يكون العنبر دافئاً، إذ أن الخمسة كيلو غرامات من غبار الفحم، التي تعطى للمناوبين لكل مدفأة،عاجزة عن تأمين الدفء.

ولذا فهم يكسرون الأخشاب، وينشروها لتصبح قصيرة، ثم يدسوها تحت معاطفهم، لكي لا تقع عينا المشرف عليها.

أما الحارس في المشروع فلا يمكن أن يأمر أبداً برمي الأخشاب:

فهو بدوره بحاجة إلى الحطب، لكن يحظر عليه حمله بنفسه، فالمعطف الرسمي لا يسمح له بذلك، ثم إن يديه تحملان البندقية الآلية، لكي يطلق النار علينا. وهكذا فما إن نصل المعسكر، حتى يصدر الحارس أمره: من الصف الفلاني إلى الصف الفلاني- أرموا ما لديكم من حطب هنا، لكن الحراس منصفون: فلابد من ترك حصة للمراقبين في المعسكر، وحصة أخرى للمعتقلين أنفسهم، وإلا فلن يحملوا الحطب بتاتاً.

وهكذا فإن كل معتقل يحمل الحطب كــل يــوم، دون أن يعرف، إن كان سيصل به سالماً، أم سينتزعونه منه.

وبينما راح شوخوف ينقب بعينيه عن شظية يلتقطها من بين الأقدام، كان رئيس المجموعة قد انتهى من عد أفرادها، وأبلغ رئيس الحرس:

- المجموعة مئة وأربعة- كاملة.

وها هو ذا قيصر يقترب من زملائه، من جهــة المكاتــب، والغليون يتوهج ناراً قانية في فمه. وشارباه أسودان، ويسأل:

- كيف الحال أيها الرائد؟.

إن من يتنعم بالدفء لا يمكن أن يفهم من أضناه البرد، يا له من سؤال فارغ- كيف الحال؟.

- كيف الحال؟- يهز الرائد كتفيه- لقد أرهقني العمــل. وبالكاد استطعت تقويم ظهري.

إن هذا يعني: دعني أدخن.

ويعطيه قيصر ليدخن. فهو لا يخالط في المعسكر أحــداً إلا الرائد، وليس ثمة من أحد غيره يكشف له عن خبايا نفسه.

- المجموعة الثانية والثلاثون تنقص واحداً، المجموعة الثانيــة والثلاثون- يردد الجميع.

انطلق معاون رئيس المجموعة الثانية والثلاثين برفقة شــاب آخر إلى هناك، إلى ورشات الصيانة، للبحث عــن المفقــود. وراح الجميع يتساءلون: من؟ ومــاذا؟ ووصــل إلى مــسامع شوخوف أن المفقود هو المولودوفي الأسود القصير. لكــن أي مولودوفي؟.

أليس ذاك المولدوفي، الذي يقال إنه كان جاسوساً رومانياً، جاسوساً حقيقياً؟.

في كل مجموعة يوجد لا أقل من خمسة جواسيس، لكن أي جواسيس هؤلاء، إنهم لا يحملون من الجواسيس إلا الاسم، أما في الحقيقة فهم مجرد أسرى. وشوخوف جاسوس من هذا النوع. أما المولدوفي فهو جاسوس حقيقي.

ما إن ألقى رئيس الحرس نظرة على القائمة، حتى اسود لونه.

إذا كان الجاسوس قد هرب، فما الذي ينتظره هو رئيس الحرس؟.

استبد الغضب بالجميع، بمن فيهم شوخوف، فأي وغد، سافل، حقير، نذل هذا المولدوفي؟ إن السماء مظلمة، ولا ضوء هناك إلا ضوء القمر، يزداد حدة- أما هو فلم يأت بعد، ابن الحرام. ألم يشبع من العمل، هذا الوغد؟ ألم يكفه الوقت الرسمي، إحدى عشرة ساعة، من الصباح حتى المساء؟ إن المدعي العام سيزيد وقت العمل، انتظر.

واستغرب شوخوف أن يستغرق أحدهم في العمل إلى درجة أن لا ينتبه للجرس.

لقد نسي شوخوف تماماً أنه للتو كان هو نفسه منكباً على العمل، على هذا النحو، وأنه شعر بالحزن والأسى لأن الاجتماع عند البوابة قد حل مبكراً جداً. أما الآن فهو يقاسي البرد مع الجميع، ويعاني من الزمهرير مثلهم، ويخيل إليه أنه، إذا ما أرغمهم هذا المولودوفي على البقاء نصف ساعة أخرى، وإذا ما سلمه الحرس لجمهور المعتقلين، إذن لمزقوه كما تمزق الذئاب العجل.

الآن بدأ البرد ينخر العظام، و لم يعد بمقدور أحد الوقوف في مكانه، فترى بعضهم يراوح في مكانه، بينما يتقدم البعض الآخر خطوتين إلى الأمام، ثم يتراجع اثنتين إلى الوراء.

إن السؤال الذي يطرحه الجميع هو هل تمكن المولدوفي من الهرب؟ إذا كان قد هرب نهاراً، فقد نجا بجلده، أما إذا كان قد اختبأ، وراح ينتظر سحب الحراس من على الأبراج، فقد أخطأ في حسابه. ففي حال لم يبق أي أثر تحت الأسلاك الشائكة، حيث خرج زحفاً، فإن البحث عنه في المنطقة سيستمر ثلاثة أيام، وسيبقى الحراس على الأبراج هذه الأيام الثلاثة، وحتى أسبوعاً بكامله. ذلك هو النظام لديهم، وهذا ما يعرفه قدامى المعتقلين، وإجمالاً فإذا ما هرب أحدهم فإن حياة الحراس تتحول إلى جحيم لا يطاق، وأحياناً يصل بهم الغضب إلى حد أنهم لا يأخذون الهارب حياً، بل يطلقون عليه النار.

ومن كل جانب تهادت صيحات المعتقلين:

أ- آ... أو- أو...

فقد ظهر ثلاثة أشخاص آتين من جهة ورشات الصيانة- إذن لقد عثرا على المولدوفي.

- أو- أو... — عاد المعتقلون إلى الصياح.

وحين اقترب الثلاثة، تحول صياحهم إلى:

- أيها الطاعون! أيها الحقير، يا ابن...

وصاح شوخوف بدوره:

- أيها الطاعون.

إنه يستحق العقاب الصارم، فقد تسبب في انتزاع أكثر من نصف ساعة من الوقت من قرابة الخمسمائة شخص.

إنه يجري، وقد أخفى رأسه، كما الفأر الصغير.

ويصرخ به الحارس، وهو يسجل:

- قف! أين كنت يا كي أربعمائة وستين؟.

ثم اقترب منه، بعقب البندقية:

- حقير! سافل، نذل...

أما البعض، فما إن راح الرقيب يدفعه بعقب البندقيــــة،حتى لاذوا بالصمت.

واستمر المولدوفي في صمته، ثم أحنى رأسه، وبدأ يبتعد عن الحارس. وهنا اندفع معاون رئيس المجموعة الثانية والثلاثين إلى الأمام:

- لقد تسلق الوغد سقالة البنـــاء، كـــي لا أراه، وهنـــاك استسلم للنوم في الدفء.

ثم ضربه بقبضة يده على قفاه، وعلى ظهره.

وبذلك فقد أبعده عن الحارس.

ترنح المولدوفي، وهنا اندفع المادياري من المجموعة الثانيـــة والثلاثين نفسها، ثم ركله على مؤخرته، وتحـــت مؤخرتـــه! /المادياريون إجمالاً لا يحبون الرومانيين/.

لا تظن أن هذا الأمر بسهولة التجسس. حتى الأحمق بوسعه أن يتجسس، فحياة الجاسوس نظيفة مرحة، لكن جـــرب في معسكر الأشغال الشاقة أن تتسبب في هدر وقت الجميع.

أنزل الحارس بندقيته.

وزعق رئيس الحرس:

- ابتعاد عن البوابة. اصطفاف خمسة خمسة.

يا لَلكلاب، سوف يعودون إلى العد. فما الداعي للعد مـــا دام كل شيء واضحاً؟ وضج المعتقلون، وانتقل كل غـــضبهم

من المولدوفي إلى الحراس. بدأوا يضحجون، و لم يبتعـــدوا عـــن البوابة.

وزعق رئيس الحرس:

- ماذا؟ هل تريدون الجلوس على الثلج؟ الآن سأجلسكم، وسأترككم حتى الصباح.

إنه ليس مجرد تهديد، فكم من مرة أجلسوهم، لابل وحتى أرغموهم على الانبطاح: "منبطحاً، لَقّم سلاحك". كل ذلك جرى، وهذا ما يعرفه المعتقلون جيداً، فراحوا يبتعدون عـــن البوابة بهدوء.

وعاد الحرس إلى الصياح:

- ابتعدوا، ابتعدوا.

- لماذا يتدافعون على البوابة هكذا؟ - تعـــرب الـــصفوف الخلفية عن استيائها، ثم تتراجع تحت الضغط.

- - خمسة، خمسة! الأولى، الثانية، الثالثة.

أما البدر فقد نشر ضوءه بكامل طاقته، وأصبح أكثر إشراقاً، بعد اللون الأرجواني. لقد ارتفع بمقدار الربع. ضاعت الأمسية، بسبب المولدوفي اللعين، والحرس اللعين، والحياة الملعونة...

راح الأوائل، الذين تم عدهم، يتلفتون، ويقفون على أصابع أقدامهم، ليروا ما إذا كان الصف الأخير مؤلفاً من اثـــنين، أو ثلاثة، فكل حياتهم تتوقف الآن على هذا.

وخيل لشوخوف أن صفهم الأخير سيضم أربعـــة، وهنـــا اقشعر بدنه من الخوف: سيكون هناك معتقل زائد! ولسوف يعاودون العد. لقد تبين أن فيتيكوف، ابن آوى، كان يتربص لالتقاط عقب سيجارة الضابط البحري، فتخلف عن خمسته، وبدا كأنه زائد.

وضربه معاون رئيس الحرس على عنقه.
وحسناً فعل.
إنهم ثلاثة في الصف الأخير. لقد تطابق العدد والحمد لله.
- ابتعدوا عن البوابة- عاد الحراس إلى الصياح.
لكن المعتقلين لا يضجون هذه المرة، فقد رأوا الجنود يخرجون من غرفة المخفر، ويحيطون بالساحة من الجهة الأخرى من البوابة.
- إذن فلسوف يدخلون. لم يكن رؤساء فرق العمال، ولا المشرف على الأعمال، ظاهرين للعيان، فيمر الشباب حاملين الحطب.
فتحت البوابة على مصراعيها. ومن ورائها، وعند الحاجز الخشبي، ظهر رئيس الحرس والمفتش.
- الأولى، الثانية، الثالثة.
إذا ما تطابق العدد من جديد، فلسوف تُرفع الحراسة عن الأبراج.
كم سيكون على حراس الأبراج البعيدة أن يسيروا على طول المنطقة. حين يغادر آخر معتقل أرض المنطقة ويتطابق العدد، وحينها فقط يتم الاتصال هاتفياً بكل الأبراج، ويؤمر الجميع بالعودة. وإذا ما كان رئيس الحرس ذكياً، فإنه يقوم بالاتصال بالحراس فوراً، فهو يعرف أن لا سبيل للمعتقلين للهرب، أما إذا كان رئيس الحرس غبياً، فهو يخاف أن لا يكفيه ما لديه من قوات ضد المعتقلين، فتراه ينتظر.
إن رئيس الحرس اليوم من هؤلاء الحمقى، فهو ينتظر.
أمضى المعتقلون النهار كله في الصقيع، إنه الموت بعينه، فقد تجمدوا من البرد. وبعد نهاية العمل أمضوا واقفين ساعة كاملة

في هذا الزمهرير. لكن ما أثار حفيظتهم ليس **هذا البرد القارس،** بل ضياع الأمسية، لم يبق لديهم من الوقت ليقوموا **بأي عمل** في المعسكر.

ويسأل أحدهم من الصف المجاور:

- من أين لك هذه المعرفة الجيدة بالحياة في الأسطول الإنكليزي؟.

- الواقع أنني عشت شهراً بكامله على متن مدمرة إنكليزية، وكان لي هناك قمرتي. كنت مرافقاً للحرس البحري، فقد كنت ضابط ارتباط لديهم.

- هكذا إذن! إن هذا يكفي لسلخك خمسة وعشرين عاماً.

- كلا، لست من أنصار هذا النقد الليبرالي، ولا أكن لتشريعنا إلا كل التقدير.

(ثرثر كما يحلو لك- قال شوخوف في نفسه، دون انزعاج. فلقد سلخوا سينكا كليفسين ربع قرن لأنه عاش يومين مع الأمريكيين، بينما أنت أمضيت شهراً كاملاً على سفينتهم- فكم تستأهل؟).

- وبعد الحرب أرسل لي الأدميرال الانكليزي، ليأخذه الشيطان، هدية تذكارية، تعبيراً عن الامتنان". فتملكتني الدهشة، ولعنته...

شيء غريب. إنه لأمر غريب فعلاً أن تنظر فترى:

السهب أجرد، المنطقة مهجورة، الثلج يلمع في ضوء القمر. والحراس أخذوا أماكنهم- عشر خطوات تفصل أحدهم عن الآخر، والسلاح جاهز. هذا القطيع الأسود من المعتقلين، وفي هذا المعطف يسير ال شي- ٣١١، الذي لم يعرف في حياته

إلا الرتب الذهبية، والذي عاشر الأدميرال الإنكليزي، والآن عليه أن يشارك فيتيوكوف نقل حمالة الطينة.

إن بالا مكان تقليب الإنسان على هذا النحو وذاك...

وتحرك الحراس، وبدون تكرار "الصلاة"، صدر الإيعاز:

- أمام سر. أسرع.

كلا لن تحصلوا على السرعة الآن. فلقد تأخرنا عن كل المرافق، ولسنا في عجلة من أمرنا. لقد فهم المعتقلون كل شيء، ودون أن يتفقوا فيما بينهم: لقد أرهقتمونا بالانتظار، والآن جاء دورنا في تأخيركم. لاشك أنكم تتوقون للذهاب إلى الدفء، بأسرع وقت...

ويزعق رئيس الحرس:

- أسرع، أسرع، أنت في الصف الأول.

لكن المعتقلين يسيرون ببطء، مطرقي الرؤوس، وكأنهم في جنازة. لم يبق لدينا ما نفقده، ولسوف نكون آخر من يصل المعسكر. لم ترغب في معاملتنا بالشكل الإنساني،إذن فتمزق الآن من الصياح.

تابع رئيس الحرس الزعيق مطالباً بالسرعة، لكنه أدرك أخيراً أن المعتقلين لن يسرعوا. وهو لا يستطيع إطلاق النار، فهم يسيرون خمسة خمسة وفي الطابور بانتظام.

ليس لديه سلطة تخوله إرغام المعتقلين على السرعة في السير. (وهذا ما يستغله المعتقلون صباحاً، حيث يتباطأون في الذهاب إلى العمل. ومن يجري بسرعة، لن يعيش حتى نهاية مدة حكمه، إذ سوف يتداعى وينهار).

وهكذا ساروا على مهل، دون عجلة، والثلج يصر تحت أقدامهم. بعضهم يتحدث بصوت خافت، وبعضهم لا يتورع

عن رفع صوته، وراح شوخوف يحاول أن يتذكر- ما الشيء الذي لم ينجزه في المعسكر منذ الصباح؟ وتـــذكر- النقطـــة الصحية. أمر غريب، لقد نسي النقطة الصحية في زحمة العمل.

في هذا الوقت يتم استقبال المرضى في النقطة الصحية، وإذا ما ضحى بالعشاء، فإن بوسعه أن يلحق فيذهب إلى هنــاك. لكنه لم يعد يشعر بألم الصباح، ولن يقيسوا درجة حرارته... إن الذهاب إلى هناك مضيعة للوقـــت. لقـــد شـــفي بـــدون الدكاترة. فهؤلاء الدكاترة يقودونك إلى التابوت الخشبي.

لم تكن النقطة الصحية هي التي تغريه الآن، بل كيف يمكن الحصول على زيادة على وجبة العشاء؟ كل أمله معقود علـــى أن يتلقى قيصر طرداً، فلقد آن الأوان لذلك منذ زمان.

فجأة طرأ تغير كبير على الطابور. فقد راح يراقص خطوته الموزونة، واختلج وبدأ العواء والأزيز- وها هـــي الأنـــساق الأخيرة، بما فيها نسق شوخوف، تجد نفسها عـــاجزة عـــن اللحاق بالأنساق الأمامية، فراحت تجري في إثرها.

وبعد السير عدة خطوات، تعود إلى الجري.

ما إن عبر ذيل الطابور التلة، حتى اكتشف شوخوف أن ثمة طابوراً آخر إلى يمينهم، بعيداً في السهب، وكان هذا الطابور يسرع في خط يتقاطع مع خط طابورنا، ومن الواضح أنه رآنا، إذ راح يغذ السير بدوره.

لا شك أن هذا طابور مصنع الآليات، الذي يضم حـــوالي الثلاثمائة شخص. ويبدو أن الخط لم يواتهم بدورهم، وأنهـــم تأخروا. لكن لماذا تأخروا؟ إنهم غالباً ما يتأخرون بسبب عدم الانتهاء من تصليح إحدى الآليات. لكنهم أوفر منا حظاً. فهم في الدفء، طيلة الوقت.

والآن من سيسبق الآخر! لقد بدأ الشباب يركضون، إنهم يركضون فعلاً. وانتقل الحراس إلى السير خببا، وراح رئيس الحرس يصيح:

- لا تتأخروا! هناك في الخلف أسرعوا! أسرعوا.

من يشبعك ضرباً على جبينك، لماذا لا تكف عن النباح؟ ألا ترى أننا نسرع؟.

لقد نسي الجميع ما كانوا يتحدثون عنه، وما كانوا يفكرون به، ولم يبق من هم للطابور كله إلا:

- يجب أن نسبقهم. علينا أن نصل قبلهم.

وهكذا فقد اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد الحراس أعداء، بل أصدقاء، أما الخصم فهو الطابور الآخر.

دب المرح في الصفوف، وتلاشى الغضب.

- هيا، هيا- يصيح من في المؤخرة، مشجعاً من في المقدمة.

أخيراً وصل طابورنا إلى الشارع، بينما اختفى طابور مصنع الآليات خلف الحي السكني، وانتقل السباق من العلن إلى الخفاء، وهنا أصبح الطريق أسهل على طابورنا، فنحن نسير وسط الشارع، وكذلك الأمر بالنسبة لحراسنا، الموزعين على الجانبين. وهنا بالذات علينا أن نسبقهم.

ومما سيمكننا من سبق طابور مصنع الآليات أن تفتيشه عند مدخل المعسكر يستغرق وقتاً طويلاً، فمنذ أن بدأت عمليات الطعن في المعسكر والرئاسة تعتبر أن السكاكين تصنع في مصنع الآليات، ومن هناك تتسرب إلى المعسكر، ولذا فإن عمال هذا المصنع يتعرضون للتفتيش الدقيق عند مدخل المعسكر، حتى نهاية الخريف حيث الأرض باردة، يصيحون بهم:

- اخلعوا أحذيتكم يا عمال المصنع! خـذوا أحـذيتكم بأيديكم. وعلى هذا النحو يفتشونهم حفاة.
والآن، وعلى الرغم من البرد القارس، فـإنهم يـشيرون لأحدهم، بشكل عشوائي:
- أنت! هيا اخلع فردة جزمتك اليمنى. أما أنت فـاخلع اليسرى.
ويخلع المعتقل فردة جزمته، ويروح يقفز على إحدى قدميه، بينما يقوم بقلب الفردة المخلوعة رأساً على عقب، لعل هناك سكيناً.
وكان شوخوف قد سمع، دون أن يعرف هل هذا صحيح، أم لا، أن عمال المصنع جلبوا في الصيف عمودي كرة سلة إلى المعسكر، وأن السكاكين كانت مخبأة في كلا العمودين. عشر سكاكين طويلة، في كل منهما. والآن نادراً ما يعثرون على واحدة منها في المعسكر، تارة هنا وأخرى هناك.
هكذا، وفيما يشبه الجري، قطعنا النادي الجديد، والحي السكني ومنشرة الأخشاب، ووصلنا إلى المنعطف المؤدي إلى المدخل:
- هو- هو- هو- بصوت واحد كان الطابور يصرخ.
كان تقاطع الطرق هذا هو ما نتطلع إلى بلوغه. وكان عمال المصنع يتخلفون عنا قرابة المئة والخمسين متراً، عن يميننا.
والآن انتقلنا إلى المسير البطيء. كانت الفرحة تغمر الجميع في الطابور، إنها فرحة الأرانب لاعتقادهم أن الضفادع لا تزال تخافهم.
ها هو ذا المعسكر. إنه لا يزال كما غادرناه في الصباح:

الليل، الأضواء فوق السياج الطويل، وتتكاثف الأضواء، خاصة أمام المدخل، حيث تبدو باحة التفتيش، وكأنها مغمورة بنور الشمس.

لكن قبل ان نصل المدخل...

- قف- صاح معاون رئيس الحرس، ثم اقترب من الطابور، على عجل، بعد أن سلم بندقيته للجندي (لا تسمح له الأوامر بالاقتراب، وهو حامل سلاحه). ليلق جميع من يحمل الحطب من جهة اليمين كل ما لديه إلى يمينه.

كانوا يحملون الحطب في أيديهم، دون أن يحاولوا إخفاءه، وبالتالي فقد كان كل شيء واضحاً، وراحت الحزم تتطاير، واحدة، اثنتان، ثلاث.ويهم البعض بإخفاء ما لديه داخل الطابور، لكن جيرانه يقولون له:

- لسوف ينتزعونها من الآخرين بسببك، فالق بها بالمعروف.

من هو عدو المعتقل اللدود؟ إنه المعتقل الآخر. ولو أن المعتقلين لم يختلفوا فيما بينهم، إذن لما كان بوسع القيادة السيطرة عليهم.

- أمام سر- يصيح رئيس الحرس.

وتابعنا السير نحو المدخل.

ثمة خمسة دروب تقود إلى المدخل، ولساعة خلت كانت هذه الدروب الخمسة تغص بالمعتقلين من كل المجموعات. وإذا ما تحولت هذه الدروب إلى شوارع في المستقبل، فإن الساحة الرئيسية في المدينة القادمة ستكون مكان هذا المدخل ونقطة التفتيش. وكما تتقاطر إلى هنا كل المجموعات، من كل الجهات الآن، فسوف تلتقي كل المسيرات ها هنا في المستقبل.

كان المراقبون يتدفأون في الداخل، وها هم يخرجون،ويقفون في عرض الطريق.

- فكوا المعاطف! فكوا السترات.

ويرفعون الأيـــدي، ويحتـــضنون المعـــتقلين، ويتلمـــسون خواصرهـم،وهـم يفتشونهم، وإجمالاً كما يفعلون في الصباح.

لكن فك المعاطف والسترات الآن لـــيس رهيبـــاً، فـــنحن عائدون إلى البيت.

هكذا يقول الجميع- "إلى البيت".

ليس لديك وقت لأن تتذكر البيت الآخر، ولو مرة واحدة في اليوم.

كانوا قد انتهوا من تفتيش رأس الطابور، حين دنا شوخوف من قيصر، وقال:

- قيصر ماركوفيتش! بعد أن نجتاز مخفر البوابة، ســأجري فوراً إلى مكتب الطرود، وأحجز دوراً.

أدار قيصر نحو شوخوف شاربيه الكثـــيفين، الأســـودين، والأبيضين الآن في أسفلهما:

- ولم حجز الدور يا إيفان دينيسيتش؟ فمن المحتمل أن لا يكون هناك طرد.

- وإن لم يكن، فأي ضرر يلحق بي؟ لسوف أنتظر عـــشر دقائق، فإن لم تأت، أذهب إلى العنبر.(يفكـــر شـــوخوف في دخيلة نفسه: إن لم يأت قيصر، فقد يأتي أحد آخر، يمكن أن أبيعه مكاني في الدور).

واضح ان قيصر يتحرق شوقاً لاستلام الطرد:

- طيب يا إيفان دينيسيفتش، إجرِ، واحجز دوراً. إنتظـــر عشر دقائق لا أكثر.

لقد أوشك شوخوف أن يصل إلى التفتيش. و لم يكن لديه اليوم ما يخفيه، ولذا فلم يكن يشعر بالخوف. فـك المعطـف بتؤدة، وكذلك السترة تحت الحزام التاربوليني.

وعلى الرغم من أنه لم يكن يذكر أنه يحمـل اليـوم أيـة محظورات فإن الحذر، الذي تراكم لديه على مدى ثمانية أعوام من الاعتقال، أصبح عادة متأصلة لديه. وهكذا فقد دس يـده في جيب البنطال، على الركبة، ليتأكد من أنه فارغ كما هـو على يقين.

لكنه فوجىء بقطعة معدنية، إنها من نصل سـكين عتيقـة، تلك التي التقطها اليوم، وسط منطقة العمل، لكنـه لم يكـن ينوي حملها إلى المعسكر.

لم يكن ينوي حملها، لكنه الآن جلبها، لا يستطيع رميها. إن بالا مكان شحذها ليحولها إلى سكين صغيرة، ولو كـسكين الحذّاء، أو كسكين الخياط.

ولو أنه فكر بجلبها، إذن لابتكر طريقة لإخفائهـا بـشكل جيد.

أما الآن فلم يبق أمامه سوى رتلين،وها هي واحـدة مـن هاتين الخمستين تنفصل عن بقية الطابور، وتتجه إلى التفتيش.

كان لابد من اتخاذ القرار بسرعة البرق: إما أن يرميها على الثلج خلسة، من وراء الخمسة الأخيرة (حيث سيعثرون عليها لاحقاً، دون أن يعرفوا لمن هي)، أو يحملها.

إن بوسعهم أن يسلخوه، بسبب هذه الشفيرة، عشرة أيـام في الانفرادي، إذا ما اعتبروها سكيناً.

لكن سكين الحذاء كانت ثروة، كانت خبزاً.

لم تطاوعه يداه على رميها.

وهكذا فقد دسها في القفاز القطني.

وهنا أوعزوا للرتل التالي بالتقدم للتفتيش.

وهكذا لم يبق غيرهم هم الثلاثة: سينكا. شوخوف، والشاب من المجموعة الاثنتين والثلاثين، الذي جرى خلف المولدوفي.

ولما كان عددهم ثلاثة، بينما كان يقف في مواجهتهم خمسة مفتشين، فقد كان بوسع شوخوف أن يختار إلى أي من المفتشين، الواقفين عن يمينه يذهب. لم يخترشوخوف الشاب، المورد الخدين، بل اختار الكهل، ذا الشاربين الشائبين. صحيح أن الكهل محنك، وقادر على العثور عليها بسهولة، إن أراد، لكن لابد أنه قد سئم هذه الخدمة، وبالتالي فلن يدقق كثيراً.

وفي هذا الوقت خلع شوخوف كلا القفازين، الفارغ، ذاك الذي يحتوي على الشفيرة، ووضعهما في يد واحدة. (بحيث كان القفاز الفارغ بارزاً إلى الأمام)، وباليد نفسها أمسك بالزنار، ثم فك كل أزرار السترة، ورفع أطراف المعطف والسترة عالياً (لم يسبق له أن كان على هذه الدرجة من الحماسة في التفتيش، إنه يريد أن يقول إنه لا يخفي أي شيء، ففتشوا كما يحلو لكم)، وما إن صدر الايعاز حتى اقترب من ذي الشاربين الشائبين.

ضرب ذو الشاربين الشائبين على خاصرتي شوخوف وظهره، ومن ثم على جيبه، فوق الركبة- لا يوجد شيء، حينها انتقل إلى دعك أطراف السترة والمعطف بيديه، لا شيء أيضاً، وقبيل أن يصرفه، وزيادة في التأكد، دعك قفاز شوخوف البارز، فوجده فارغاً.

بينما كان المفتش يضغط على القفاز، شعر شوخوف بقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان في الداخل. يكفي أن يقوم المفتش بالضغط هكذا على القفاز الثاني، حتى تحدث الطامة الكبرى- إلى الانفرادي، بمخصصات ثلاثمائة غرام في اليوم، وحيث لا يقدم الطعام الساخن إلا في اليوم الثالث. وللحال تصور كيف سيضعف هناك، ويجوع، وكيف سيكون من الصعب عليه أن يستعيد حالته الراهنة، المقبولة، التي هي بين الجوع والشبع.

وللحال راح يبتهل في دخيلته: "أنقذني يا إلهي، لا تكتب لي الانفرادي".

كل هذه الأفكار راودته بينما كان المفتش يدعك القفاز الأول، وينقل يده، لكي يدعك القفاز الثاني على هذا النحو (كان من شأنه أن يدعك القفازين بيديه دفعة واحدة، لو أن شوخوف كان يحملهما في يديه الاثنتين). وهنا صاح رئيس المفتشين طالباً الإسراع في التفتيش، ثم صاح بالحرس:

- والآن هاتوا مصنع الآليات.

وبدلاً من أن يقوم المفتش، ذو الشاربين الشائبين، بفحص قفاز شوخوف الثاني، لوح بيده- أن مر. ثم تركه.

جرى شوخوف ليلحق بزملائه، الذين كانوا قد اصطفوا خمسة خمسة، بين حاجزين خشبيين طويلين، يشبهان مربط الخيل في السوق، ويشكلان ما يشبه الزريبة للطابور. كان شوخوف يجري خفيفاً، لا يشعر بالأرض تحت قدميه، و لم يعد إلى الصلاة تعبيراً عن امتنانه، لأنه لا وقت لديه، ثم إنه لم تعد ثمة حاجة.

كان الحراس، الذين يقودون طابورهم، قد ابتعدوا جانباً، ليفسحوا المجال أمام حراس طابور مصنع الآليات، ووقفوا

بانتظار رئيسهم. وراح الحراس يجمعون لأنفسهم الحطب، الذي ألقاه الطابور قبل التفتيش، أما الحطب، الذي انتزعه المفتشون أنفسهم، فقد جمع في كومة قرب مخفر المدخل.

كان البدر يرتفع عالياً شيئاً فشيئاً، وفي الليل الأبيض المشرق كان الصقيع يختمر.

في طريقه إلى مخفر الدخول لاستعادة الإيصال باستلام أربعمائة وثلاثة وستين رأساً، تحدث رئيس حرس المرافقة مع برياخا، معاون فولكافوي، فصاح هذا:

- كي- أربعمائة وستون.

تنهد المولدوفي، الذي دفن نفسه في لجة الطابور، وخرج إلى الحاجز الأيمن، كان لا يزال مطرق الرأس، محاولاً إخفاءه بين كتفيه.

- تعال إلى هنا- قال له برياخا، مشيراً إلى مربط الخيل.

دار المولدوفي حول المكان، وأمروه بالوقوف هناك، ويداه خلف ظهره.

إذن سوف يتهمونه بمحاولة الهرب، ويزجون به في السجن.

قبل الوصول إلى البوابة، وقف خفيران إلى يمين الزريبة ويسارها. فتحت البوابة، التي يبلغ علوها ثلاثة أضعاف قامة الإنسان، ببطء، وتردد الايعاز:

- اصطفوا خمسة، خمسة. ـــ (لا داعي هنا للإيعاز بالابتعاد عن البوابة: فكل البوابات تفتح نحو داخل المنطقة، لكي لا يتمكن المعتقلون، في حال دفعها من الداخل. من اقتلاعها)، الأولى، الثانية، الثالثة...

- وفي هذا الإحصاء المسائي، يشعر المعتقل، وهو عائد، عبر بوابة المعتقل، مثقلاً بلفح الرياح، والشعور بالبرد والجوع، بأن

مغرفة حساء الكرنب الساخن، هي بالنسبة له كما المطر للأرض القاحلة- لسوف يلتهمها دفعة واحدة. إن هذه المغرفة هي الآن بالنسبة له أغلى من الحرية، أغلى من كل حياته السابقة واللاحقة.

يبدو المعتقلون، وهم يدخلون بوابة المعسكر، كما المقاتلين العائدين من الغزو- فهم صاخبون، نشيطون، يسيرون بخطوات واسعة- فابتعد عن طريقهم.

ويشعر ناقص العقل، إذا ما نظر من عنبر القيادة إلى هذه الموجة العاتية من المعتقلين الداخلين، بالرهبة.

بعد هذا الإحصاء، ولأول مرة منذ منتصف السابعة صباحاً، حين تردد نفير الاجتماع الصباحي، يصبح المعتقل إنساناً حراً. فلقد اجتازوا بوابة المنطقة الكبيرة، واجتازوا البوابة الصغرى، الفاصلة بين بوابة المنطقة وبوابة المعسكر، كما مروا عبر الحاجزين، والآن تشتتوا، وذهب كل حيث يريد.

كل حيث يريد، إلا رؤساء المجموعات، الذين يصطادهم المكلف بالخدمة:

- رؤساء المجموعات إلى دائرة التخطيط والإنتاج.

هذا يعني التحضير ليوم غد.

اندفع شوخوف، ماراً بالسجن، عبر البراكات، ودخل مكتب الطرود. بينما سار قيصر بخطوات موزونة، وبكل هدوء، إلى الجهة الأخرى، حيث يتزاحم الكثيرون حول عمود، عُلقت عليه لوحة خشبية، كتبت عليها بقلم كيميائي أسماء من ورد له طرد اليوم.

في المعسكر نادراً ما يستخدمون الورق للكتابة، وغالباً ما يستخدمون الخشب المعاكس، فالكتابة على اللوح أثبت

وأدق. حيث يقوم المكلفون بالخدمة بتسجيل عدد الرؤوس عليها، وفي الغد بإمكانك أن تكشطها، وتكتب عليها من جديد، فتوفر الكثير.

وأغلب المتزاحمين حول العمود لم يأتوا بحثاً عن طرود لهم، بل ليطلعوا على اسم صاحب الطرد، وأثناء الاجتماع يخبرونه بذلك، لقاء مكافأة- سيجارة، على أقل تقدير.

أخيراً وصل شوخوف إلى مكتب الطرود، وهو عبارة عن غرفة مدخل، ملصقة بجناح تابع لأحد العنابر. والغرفة بدون باب من الخارج، وبالتالي فإن البرد يسرح ويمرح فيها، ومع هذا فهي تبدو مريحة، فلها سقف على الأقل.

كان الطابور في الغرفة يتعرج على طول الجدار، وحجز شوخوف دوره. إن أمامه قرابة الخمسة عشر، وإن ذلك يستغرق زهاء ساعة، أي أنه سينتهي قبل نفير النوم. أما الذين ذهبوا من طابور المحطة للاطلاع على القائمة، فسوف يقفون خلف شوخوف، وكذلك من طابور مصنع الآليات. الجميع حريص على أن لا يأتي من أجل الطرد مرة ثانية، منذ الصباح الباكر غداً.

يقفون في الطابور، حاملين المخالي والعدول، فهناك خلف الباب (لم يسبق لشوخوف أن استلم هنا أي طرد، لكنه سمع)، يفتحون صندوق الطرد ببلطة صغيرة، ويقوم المراقب بإخراج كل محتوياته،وتفحصها، يقطع هذا، يكسر ذاك، يتلمس بعض الحاجيات، ويدلق بعضها. وإذا كان ثمة سائل ما، في أوانٍ زجاجية، أو من الصفيح، فإنه يفتحها، ويسكب محتواها،أردت في يديك، فضعهما، أو في منشفة، فضعها على شكل كيس. أما الفوارغ فلا تعطى لك، خوفاً من شيء ما.

أما إذا كانت المحتويات من الفطائر، أو الحلويات النـــادرة، أو النقانق أو السمك، فإن المراقب سوف يقضم منها. (جرب أن تحتج- على الفور يعلن أنها محظورة، وما هو محظور يبقى لديه. على من تأتيه طرود أن يعطي، ويعطى بدءاً مـــن المراقـــب). وحين ينتهون من تفتيش الطرد، لا يعطونك الصندوق الفارغ، وما عليك إلا أن تضع كل شـــيء في المخـــلاة، أو في ردن المعطف، وتبتعد، ليحل التالي محلك. وقد يـــستعجلونك إلى درجة أنك تنسى شيئاً ما على الطاولة. لكن لا تحاول أن تعود في طلب ما نسيت، لأنه لم يعد موجوداً.

في أوست – إيجما استلم شوخوف طردين اثنين. لكنـــه لم يلبث أن كتب لزوجته أنه لا يستفيد شيئاً مما ترسله، وطلب منها أن لا ترسل له بعد الآن شيئاً، وأن تترك ذلك للصغار.

وعلى الرغم من أنه كان من الأسهل عليه، وهـــو مطلـــق السراح، أن يقوم بأود أسرة بكاملها، فإنه الآن عـــاجز عـــن إطعام نفسه، لكنه يعرف كم تكلف هذه الطـــرود أســـرته، ويعرف أنه لا يستطيع الاستمرار في انتزاع اللقمة مـــن فـــم أسرته على مدى عشر سنوات. إذن فالأفضل أن يبقى بدونها.

صحيح أنه قرر ذلك، لكنه في كل مرة، يتسلم فيها أحـــد أفراد مجموعته، أو أحد جيرانه في العنبر، طرداً (أي كل يـــوم تقريباً) يشعر أن قلبه يكاد ينفطر، لأن هذا الطرد ليس لـــه. وصحيح أنه حظر على زوجته أن ترسل الطرود، حتى بمناسبة عيد الفصح، ولا يذهب أبداً إلى العمود، حيث قائمة الأسماء، إلا من أجل أحد الأغنياء من مجموعته- فإنه لسبب ما كـــان ينتظر أحياناً أن يهرع إليه أحدهم، ويقول له:

- شوخوف! لماذا لا تذهب؟ لقد جاءك طرد.

لكن أحداً لم يهرع إليه..

كانت المناسبات، التي تذكره بقريته "تيمغينيوفو" وبعزبته، تتناقص شيئاً فشيئاً... فقد عركته الحياة هنا، ومن نفير الاستيقاظ، حتى نفير النوم، دون أن تترك لديه ذكريات عديمة الجدوى.

الآن، وهو يقف بين أولئك، الذين يهدهدون بطونهم ويمنونها بقرب التهام الشحم المقدد، ودهن الخبز بالزبدة، أو تحلية القدح بالسكر، كان الأمل الوحيد، الذي يراوده أن لا يتأخر في الوصول إلى المطعم مع مجموعته، وأن يتناول البالاندا ساخنة، لا باردة. فالباردة لا تساوي قلامة ظفر، مقارنة مع الساخنة.

لقد قدر أن قيصر، إن لم يكن قد عثر على اسمه في القائمة، فإنه الآن في العنبر من زمان، وأنه يجمع الأكياس والأقداح البلاستيكية، والوعاء الفارغ، ولهذا فقد وعد شوخوف بالانتظار عشر دقائق.

هنا في الطابور سمع شوخوف بالخبر: لن يكون لديهم يوم أحد هذا الأسبوع، سوف يكون يوم سخرة عادياً. هذا ما كان يتوقعه، وهذا ما كان الجميع يتوقعونه: إذا كان في الشهر خمسة أيام آحاد، فإنهم يعطونك ثلاثة منها، أما الباقيان فتذهب فيهما إلى العمل. صحيح أنه كان يتوقع هذا، لكن ما إن سمع بذلك، حتى شعر بغصة في حلقه: ومن لا يتضايق من سلبه يوم الأحد. حقه الشرعي؟ إن ما يقولونه في الطابور صحيح: حتى يوم العطلة يغتصبونه، فيخترعون لك شيئاً- إما ترتيب الحمام، وإما إقامة جدار حاجز، وإما تنظيف الساحة. وتارة تغيير الفراش، ونفضه وقتل البق في الأسرة، وأخرى يبتكرون مطابقة

المعطيات الشخصية حسب البطاقات، أو إجراء الجرد: أُخرج مع كل أغراضك إلى الساحة، واجلس حتى وقت الظهيرة.

إن أكثر ما يضايقهم على الأرجح أن ينام المعتقل، بعد الفطور.

كان الطابور يتحرك، وإن ببطء. ثلاثة جاءوا بدون دور، دون أن يسألوا أحداً، ودفعوا الواقف في المقدمة- الحلاق والمحاسب، وأحد العاملين في قسم الرسائل. لكن هؤلاء لم يكونوا معتقلين أغراراً، بل كانوا سخفاء محنكين، من الرعيل الأول في المنطقة. كان المعتقلون الكادحون يعتبرون هؤلاء من أحقر الناس (وهؤلاء بدورهم كانوا يصنفون المعتقلين الكادحين على هذا النحو)، لكن من العبث أن تجادلهم، فهم متكاتفون مع بعضهم، ومع المراقبين أيضاً.

ومع هذا كان لا يزال أمام شوخوف حوالي العشرة أشخاص، ومن خلفه سبعة آخرون. وهنا عبر فتحة الباب، دخل قيصر، وهو ينحني، كان يرتدي قبعته الفرائية الجديدة، التي أرسلوها له (وهاكم القبعة أيضاً: لقد رشا قيصر أحدهم، فسمح له بلبس القبعة المدنية الجديدة والنظيفة. أما بالنسبة للآخرين فقد انتزعوا منهم حتى القبعات الرثة، التي كانوا يرتدونها في الجبهة، وأعطوهم قبعات المعسكر، المصنوعة من جلد الختزير).

ابتسم قيصر لشوخوف، وللحال قال مخاطباً أحد غريبي الأطوار، الذي يلبس نظارة، ولا يكف عن قراءة الصحيفة، وهو واقف في الطابور:

- آ- بيوتر ميخائيليتش!.

وتفتحا لبعضهما، كما يتفتح زهر الخشخاش. ويقول له غريب الأطوار، ذاك:

- إن لدي صحيفة "المساء":، إنها طازجة، انظر. لقد أرسلوها لي في طرد بريدي.

- معقول؟- ويدس قيصر وجهه في الصحيفة إياها. لكن اللمبة، المتدلية من السقف، ضعيفة، ضعيفة، فكيف يمكن أن تميز في ضوئها هذه الحروف الصغيرة؟.

- هنا مقالة نقدية ممتعة عن العرض الأول لزفادسكي[10]...

إنهما موسكوفيان، يشمان رائحة بعضهما من بعيد، كما الكلاب. وحين يلتقيان لا يكفان يتشممان، يتشممان على طريقتهما، ويثرثران بسرعة، بسرعة، كل منهما يريد أن يبز الآخر في كثرة الكلام. وحين يثرثرون على هذا النحو، نادراً ما تسمع المفردات الروسية، ومن يصغي إلى مثل هذه الثرثرة كمن يصغي إلى اللاتفيين، أو الرومانيين.

كل الأكياس في مكانها في يد قيصر.

ويتمتم شوخوف:

- إذن فأنا...يا قيصر مركوفيتش... ربما أذهب؟.

- طبعاً، طبعاً- رفع قيصر شاربيه الأسودين عن الصحيفة- إذن فوراء من أنا؟ ومن ورائي؟.

أوضح له شوخوف من يقف وراء من، ودون أن ينتظر أن يتذكر قيصر العشاء، سأله:

- والعشاء، هل أجلبه لك؟.

---

[10] زفادسكي يوري: مخرج وممثل سوفيتي معروف بارز(١٨٩٤- ١٩٧٧). /المترجم

(هذا يعني أن يحمل العشاء في الوعاء من المطعم إلى العنبر، لكن حمل الطعام محظور تماماً، فهناك الكثير من الأوامر بهذا الخصوص. ومن يمسكون به، يدلقون الطعام الذي يحمله من الوعاء، ويزجونه هو في الانفرادي- ومع هذا يحملون الطعام من المطعم، وسيظلون يحملونه، لأن من لديه عمل لا يمكن أن يلحق بمجموعته في المطعم أبداً).

سأله هل يجلب له العشاء، وهو يقول بينه وبين نفسه: "أمن المعقول أنك ستأكل البالاندا؟ ألن تهديني عشاءك؟ فالعصيدة لا تقدم مساء، وحدها البالاندا فقط...".

- كلا، كلا- قال قيصر مبتسماً- بوسعك أن تتناول عشائي، يا إيفان دينيسيتش.

هذا بالذات ما كان ينتظره شوخوف. فقد طار كما العصفور الحر من تحت سقف غرفة المدخل، وانطلق، عبر المنطقة، حيث كان المعتقلون يسعون جيئة وذهاباً.

لقد سبق لرئيس المعسكر أن أصدر أمراً، يحظر بموجبه على المعتقلين التجول في المعسكر فرادى. فإذا ما دعت الحاجة، تسير المجموعة في طابور واحد، أما إذا لم تكن المجموعة كلها بحاجة للذهاب إلى مكان ما، إلى النقطة الصحية مثلاً، أو إلى المرحاض، عندها يتم تشكيل زمر من أربعة- خمسة أشخاص، يعين على كل منها رئيس، يقودها إلى هناك صفاً، وهناك ينتظرونها، ثم يعود بها صفاً أيضاً.

ولقد أصر رئيس المعسكر على التقيد بذلك القرار. و لم يجرؤ أحد على مخالفته. وراح المراقبون يمسكون بالعصاة، يسجلون أرقامهم، ويجرونهم إلى السجن- لكن القرار تحطم، تحطم بهدوء، كما يتحطم الكثير من القرارات الصاخبة. فحين

يستدعون هم أنفسهم أحد المعتقلين، لا يمكن أن ترسل معه فرقة كاملة. وحين تكون بحاجة للذهاب إلى الأمانات، لأخذ أغراضك، فلماذا أذهب أنا برفقتك؟.

أو إذا ما خطر لأحدهم أن يذهب إلى قلم التثقيف، فمن يمكن أن يذهب معه؟، وهذا بحاجة لأن يصلح جزمته، وذاك للذهاب إلى النشافة، وآخر للانتقال من عنبر إلى آخر (الانتقال من عنبر إلى آخر محظور تماماً) — فكيف تمنعهم؟.

بهذا القرار أراد رئيس المعسكر أن ينتزع من المعتقلين هذه الثمالة من الحرية، لكن محاولته باءت بالفشل.

في الطريق إلى العنبر صادف شوخوف المراقب، فرفع قبعته قليلاً أمامه، ثم دخل العنبر على عجل. كانت الضوضاء تسود العنبر: لقد سرقت حصة أحدهم نهاراً، بعضهم يصرخ بالمناوبين، والمناوبون يصرخون، بينما ركن المجموعة ١٠٤ لا يزال فارغاً.

لدى عودهم إلى المنطقة اعتبر شوخوف تلك الأمسية موفقة، والآن وجد أن الفراش لم يقلب، وأن التفتيش لم يجر في العنبر نهاراً.

اندفع شوخوف نحو سريره، وألقى المعطف عن كتفيه عالماشي، ثم وضعه في الأعلى، ومن فوقه القفازين مع الشفرة، وبعدها تلمس الفراش في عمقه، فوجد أن قطعة الخبز الصباحية في مكانها. وسر لأنه خاط الفراش فوقها.

وجرى إلى الخارج! إلى المطعم، لا يلوي على شيء.

وصل إلى المطعم بسلام، دون أن يلتقي المراقب. وحدهم المعتقلون كانوا يسيرون للقائه، وهم يتناقشون حول الحصص.

في الساحة كان كل شيء يزداد إشراقاً في ضوء القمر. وكانت المصابيح قد خفتت في كل مكان، وخيمت ظلال العنابر السوداء. وكان المدخل، المؤدي إلى المطعم- عبر سلم عريض، ذي أربع درجات- في الظل أيضاً، وثمة فوق مصطبة المدخل، مصباح يتأرجح، ويئن في الصقيع. وكانت اللمبات تضيء بألوان مختلفة، إما بسبب الصقيع، وإما بسبب التلوث.

وكان هناك قرار صارم لرئيس المعسكر: تذهب المجموعات إلى المطعم على أنساق، وكل نسق من شخصين، ويتابع القرار: حين تصل المجموعات إلى المطعم، لا يسمح لها بارتقاء الدرجات، بل تقف خمسة خمسة، وتبقى واقفة إلى أن يسمح لها مناوب المطعم بالدخول.

كان المناوب الدائم في المطعم هو الأعرج، وبفضل عرجه حصل على درجة "معاق"، لكنه وغد كبير، فقد اقتنى عصا من البتولا، وبهذه العصا يضرب من على مصطبة المدخل، كل من يحاول الدخول دون إذنه. لكن ليس كل من يحاول، فالأعرج يتمتع بنظر ثاقب، حتى أنه يعرف الشخص في الظلام، وإن كان هذا الشخص مديراً ظهره، إنه يضرب من يمكن أن يتناوله على بوزه. لكنه لا يضرب إلا المستضعفين. وذات مرة ضرب شوخوف.

إن اسمه "مناوب"، لكنه في الحقيقة أمير- فهو يصادق الطهاة.

واليوم، إما أن المجموعات تدفقت في وقت واحد، وإما أنهم أمضوا وقتاً طويلاً في تطبيق النظام، فقد كان الازدحام على أشده، عند درجات المدخل، وعلى مصطبة المدخل يقف

الأعرج ومعاونه ومدير المطعم نفسه، إنهم يـــديرون الأمـــور بدون مراقبين.

ومدير المطعم وغد معلوف، ورأسه كاليقطينـــة، وكتفـــاه بعرض أرشين. إن لديه من القوة في جسمه ما يجعلـــه يمـــشي كأنه على نوابض، ويختلج، لكأن قدميه بنوابض، وكـــذلك يديه. وهو يرتدي قبعة وبر بيضاء، بدون رقم، وليس لدى أي من الأحرار قبعة مثلها. كما يرتدي صدرية، على الصدر، رقم صغير، بحجم طابع البريد- إنه تنازل من فولكافوي، أما على ظهره فلا يوجد رقم كهذا. ومدير المطعم لا ينحني لأحـــد، بينما يخافه جميع المعتقلين، فهو يقبض في يديـــه علـــى آلاف الحيوات، وفي ذات مرة هموا بضربه، لكن جميع الطهاة اندفعوا لنجدته، وكلهم من الأشقياء المنتقين.

المهم الآن أن لا تكون المجموعة ١٠٤ قد دخلت- فالأعرج يعرف جميع المعتقلين، وبحضور مدير المطعم لن يسمح مطلقـــا بالدخول مع مجموعة أخرى، ولسوف يرفض حتماً.

ومن خلف الأعرج يقفزون أحياناً من فوق درابزون السلم، وكان شوخوف قد تسلل هو الآخر أكثر من مرة.

أما اليوم، وبحضور مدير المطعم، فلا يمكن أن تقفـــر، وإلا أوسعك ضرباً، فتنتهي إلى النقطة الصحية.

والآن أسرع، أسرع إلى سلم المدخل، لمعرفة ما إذا كانـــت المجموعة١٠٤مازالت هنا، وسط كل هذه المعاطف الـــسوداء المتشابهة.

وفي هذا الوقت بالذات راحت المجموعات تتدافع وتتـــدافع (وهي مضطرة لذلك، فالنفير لم يعد بعيداً)، وكمن يهـــاجم

إحدى القلاع- بدأت تحتل الدرجات، الأولى، الثانية، الثالثة، والرابعة، ووصلت إلى مصطبة المدخل.

- قف، يا أولاد ال.... صرخ الأعرج، ورفع العصا على من في الطليعة- انزلوا! وإلا أدميت رأس أحدكم الآن...

ويصيح من في الطليعة:

- لكن ما ذنبنا نحن؟ إنهم يدفعوننا من الخلف.

صحيح أن الدفع يأتي من الخلف، لكن من في الطليعة لا يبدون الكثير من المقاومة، فهم يأملون في اقتحام المطعم.

حينها وضع الأعرج عصاه بالعرض، أمام صدره، كما الحاجز المغلق، ثم اندفع بمنتهى السرعة، نحو من في المقدمة. وبدوره تشبث معاون الأعرج بهذه العصا، كما حذا حذوه مدير المطعم، دون أن يأنف من تدنيس يديه.

لقد تحركوا بمهارة، وكانوا شديدي البأس، بفضل أكل اللحوم، فتمكنوا من صد الهجوم، حيث قلبوا من في الطليعة على من في المؤخرة، فتهاووا، كما الحزم.

ويصيح بعضهم، وهم مختبئون في الزحام:

- يا أعرج النحس... من يمزق جبينك!.

أما الباقون فقد سقطوا بصمت، وراحوا ينهضون بصمت، وبسرعة، قبل أن يداسوا بالأقدام.

نظفوا الدرجات، وتراجع مدير المطعم عبر المصطبة. اما الأعرج فقد وقف على الدرجة العليا، وبدأ موعظته:

- انتظموا خمسة خمسة، يا رؤوس الخراف، كم مرة يجب ان يقال لكم ذلك؟! عند اللزوم، سوف أدعكم تدخلون.

ميز شوخوف، قدام السلم، تماماً ما يشبه رأس سينكا كليفشين، ولا تسل عن فرحه، وبدأ يحاول شق طريقه إلى

هناك، مستخدماً كتفيه. تحركت الظهور، لكنه وقف عاجزاً، إذ رأى استحالة اختراق الصفوف.

وصاح الأعرج:

- المجموعة السابعة والعشرون- ادخلوا.

وثبت السابعة والعشرون، ترتقي الدرجات، واندفعت نحو الباب على عجل، ومن خلفها اندفع الجميع عبر الدرجات، وراح من في المؤخرة يضغطون أيضاً، وبدوره راح شوخوف يضغط بكامل قوته، وبدا السلم يتأرجح، وشرع المصباح، المعلق فوق المدخل، يطلق صريره.

- من جديد يا أوغاد؟- صرخ الأعرج بغضب، وراح يكيل بعصاه الضربات على الأكتاف، والظهور، ويرمي، البعض على البعض الآخر.

واستتب النظام من جديد.

ورأى شوخوف من الأسفل بافلو يصعد بالقرب من الأعرج. إنه يقود المجموعة، أما تيورين فلا يأتي في مثل هذا الزحام، فيتلوث.

وصاح بافلو من الأعلى:

- مئة وأربعة، قفوا خمسة، خمسة،- أما أنتم فاحشروا أنفسكم يا أصحاب.

- دعني أمر، فأنا من تلك المجموعة- يصيح شوخوف.

إن بود هذا أن يدعه يمر، لكنهم يعصرونه من كل الجهات.

يتأرجح الجمهور، ويختنق لكي يحصل على البالاندا، البالاندا، التي هي من حقهم.

حينها قرر شوخوف سلوك طريق آخر: تمسك بالدرابزون، من الجهة اليسرى، ووصل بيديه إلى عمود سقف المدخل، ثم

انفصل عن الأرض، وأصبح معلقاً، وقد دفع بقدميه ركبتي أحدهم، فضربه هذا على خاصرته، وأوسعه شتماً، لكنه نجا بجلده، فقد وضع إحدى قدميه على حافة المدخل، عند الدررجة العليا، وراح ينتظر. وإذ رآه أصحابه، مدوا له أيديهم.

ولدى انصرافه التفت مدير المطعم، وهو بالباب:

- هيا يا أعرج.

- مئة وأربعة...وانت إلى أين تتسلل يا وغد؟- هوى بعصاه على عنق ذلك الغريب.

- مئة وأربعة- صاح بافلو، وراح يمرر جماعته.

- أوف...ف- تنفس شوخوف الصعداء، وبعد أن دخل المطعم، ودون أن ينتظر أن يرسله بافلو لجلب الصواني، جرى، يبحث عن الصواني الفارغة.

وفي المطعم، كما هي العادة، تطالعك أعمدة البخار- من الباب، والمعتقلون يجلسون، متراصين إلى جانب بعضهم، كما البذور في زهرة عباد الشمس، وثمة من يتحرك بين الطاولات، وهناك من يتدافع، ومن يحاول شق طريقه، حاملاً الصواني الملأى.

لكن شوخوف، الذي اعتاد على هذا كله خلال هذه السنوات، رأى بنظره الحاد أن "شي-٢٠٨" لا يحمل على الصينية سوى خمسة صحون، مما يعني أن هذه الصينية هي الأخيرة في المجموعة، وإلا لماذا هي ليست مملوءة؟.

لحق به شوخوف، وهمس في أذنه من الخلف:

- إنني يا أخ من أجل الصينية، هلا أعطيتني إياها.

- لكن أحدهم يقف هناك، عند الطاقة، لقد وعدته...

- دعهُ ينتظر إذن. كان الأحرى به أن يجري وراءك.

واتفقا.

وصل هذا إلى مكان مجموعته، وأفرغ الصينية، ولم يكد شوخوف يمسك بالصينية، حتى وصل جرياً، ذاك، الموعود بها، وراح يشدها من الطرف الآخر. وهو أكثر هزالاً من شوخوف. ودفعه شوخوف إلى الجهة، التي يشد إليها، فطار باتجاه العمود، وقد انفصلت يداه عن الصينية. أما شوخوف فللحال دسها تحت إبطه، وجرى إلى حيث يتم التوزيع.

كان بافلو يقف في الطابور، قدام الطاقة، لكنه بدون صواني. وقال بفرح، إذ رأى شوخوف:

- إيفان دينيسوفيتش!- ثم دفع بمعاون رئيس المجموعة من طريقه- دعني أمر، لماذا تقف عبثاً؟ إن لدي صواني.

وهاهو ذا غوبتشيك يجري، حاملاً صينية، وقال ضاحكاً:

- لقد أخذتها خلسة، كانوا مشغولين عنها.

سوف يكون غوبتشيك مناسباً للعمل في المعسكر. فبعد ثلاثة أعوام من التعلم والنمو، يصبح بعدها لا أقل من المسؤول عن تقطيع الخبز.

- المئة وأربعة- أبلغ بافلو عبر الطاقة.

لا يوجد إلا خمس طاقات: ثلاث منها للتوزيع العام، وواحدة للمطعمين، حسب الجدول (مرضى القرحة، وعددهم حوالي العشرة، وأصحاب الواسطة- جميع العاملين في المحاسبة)، وثمة طاقة خامسة لاستعادة الأواني (ولدى هذه الطاقة، يتقاتلون من أجل الفوز بلعق الصحون)، والطاقات ليست عالية، فوق الخصر بقليل، ومن خلالها لا ترى الطهاة، لكنك ترى أيديهم والمغارف أيضاً.

إن يدي الطاهي بيضاوان، ناعمتـــان، لكنـــهما مغطاتـــان بالشعر، ضخمتان. إنه ملاكم حقيقي، وليس طاهياً. أخذ قلم الرصاص، ووضع إشارة على الجدول، المعلـــق عنـــده علـــى الجدار:

- المئة وأربعة- أربعة وعشرون.

وهاهو بانتيليف قد دب إلى المطعم. إنه ليس مريضاً أبـــداً، اللعين.

تناول الطاهي مغرفة ضخمة، سعة ثلاثة ليترات، وراح يحرك بها ما في الحلة، يحرك، ويحرك. (والحلة أمامه عبئت للتو، تكاد تكون ملأى، ومنها يتصاعد البخار بكثافة).

وبعد ان تناول مغرفة، سعة سبعمائة وخمسين غرامـــاً، راح يغرف بها، دون أن يجعلها تغوص عميقاً.

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

لاحظ شوخوف الصحون، التي عبئت، قبـــل أن يترســـب السائل الكثيف في أسفل الحلة، وتلك التي عبئت خلبياً، وليس فيها إلا مجرد سائل. وضع على صينية عشرة صحون، وحملها، ومن عند

صف الأعمدة الثاني، كان غوبتشيك يلوح له:

- إلى هنا يا إيفان دينيسيتش، إلى هنا.

إن حمل الصحون ليس بالأمر السهل. راح شوخوف يتحرك بسلاسة، محاذراً أن تتلقى الصينية أية صـــدمة، وحنجرتـــه لا تكف تلعلع:

- هيه، أنت، ياخي- تسعمائة وعشرين... انتبه يا عم.... ابتعد عن الطريق يا شاب!.

في زحمة كهذه بالكاد يمكن أن تحمل صحناً واحداً، وتصل به سليماً- فما بالك بحمل عشرة! ومع هـذا فقـد وضـع شوخوف الصينية في المكان، الذي جهزه غوبتـشيك، علـى طرف إحدى الطاولات، دون أن يندلق من الصحون شـيء. ثم إنه فطن إلى أن يضعها بحيـث تكـون الـصحون، ذات البالاندا، الأكثر كثافة، أمامه حين يجلس.

وجلب يرمولايف عـشرة صـحون أخـرى، ثم جـرى غوبتشيك، وجلب مع بافلو الصحون الأربعة الباقيـة، وقـد حملاها بأيديهما.

أما كيلديغس فقد جلب الخبز على صينية. اليوم يوزع الخبز حسب الجهد المبذول في العمل- البعض يحصل علـى مـئتي غرام، والبعض على ثلاثمائة، أما شوخوف فسيحـصل علـى أربعمائة. وهكذا فقد أخذ أربعمائة غرام، حـصته، ومـائتي غرام، حصة قيصر.

وهنا بدأ المعتقلون يتدفقون من كل الجهـات- يـستلمون عشاءهم، ويجلسون حيث يجدون المكان الشاغر، ثم يأكلون.

بدأ شوخوف يوزع الصحون، ويتذكر لمن أعطى، وهو لا يكف عن مراقبة الصحون، الأكثر كثافة، ثم لم يلبث أن وضع ملعقة في أحدها، وهذا يعني أنه حجزه، وكان فيتيوكوف قد أخذ صحنه، في عداد من أخذ أولاً، وانصرف: فهو يعرف أنه لن يكسب شيئاً من بقائه في المجموعة الآن، ومن الأفـضل أن يطوف أنحاء المطعم، لعل أحدهم لا يأتي على حصته. (إذا لم ينه أحدهم حصته، وابعد الصحن جانباً- فـإن عـدداً مـن المعتقلين ينقض عليه فوراً، كما النسور الجارحة).

أحصى الصحون مع بافلو، فبدا أنها كاملة. وضع شوخوف أمام أندريه براكوفيفيتش واحداً من الصحون الكثيفة. أما بافلو فقد سكبه في وعاء ألماني ضيق، ذي سدادة: يمكن حمله تحت المعطف، ملصقاً إياه بصدره.

سلموا الصواني. جلس بافلو، وأمامه حصته المضاعفة، كما جلس شوخوف أمام صحنيه. و لم يعد أحد ينبس ببنت شفة، فقد حلت اللحظات المقدسة.

خلع شوخوف قبعته، ووضعها على ركبتيه، ثم فحص أحد الصحنين بالملعقة، وفحص الثاني. لابأس، هناك بعض فتات السمك. وإجمالاً فإن البالاندا المسائية أقل كثافة من الصباحية: ففي الصباح يجب أن يأكل المعتقلون جيداً لكي يعملوا جيداً، أما في المساء فلسوف يغفون على كل حال، ولن يفطسوا.

بدأ شوخوف يأكل. في البداية شرع يشرب السائل فقط، ويشعر بالسائل الساخن واللذيذ ينتشر في كل جسده، وراح بطنه يخفق للقاء البالاندا. يا سلام. تلك هي اللحظة الخاطفة، التي يعيش المعتقل من أجلها.

الآن لا يشعر شوخوف بأي استياء: لا من مدة السجن الطويلة، ولا من طول النهار، ولا من حرمانهم من يوم الأحد مرة أخرى. إنه الآن يقول في دخيلة نفسه: لسوف نتغلب، سوف نتغلب على كل شيء. وإن شاء الله سوف ينتهي هذا.

بعد أن أتى على السائل الساخن في كلا الصحنين، دلق الصحن الثاني في الأول، وبعد أن هزه قليلاً، راح يكشط بالملعقة ما علق في أسفله وعلى جوانبه من الطعام. هكذا يرتاح باله أكثر، فلا داعي بعد ذلك للقلق على الصحن الثاني، ولا للسهر عليه بعينيه ويده.

أصبحت عيناه حرتين- فألقى نظرة جانبية على صـــحون جيرانه. لم يكن في صحن جاره، الجالس إلى يساره، ســـوى الماء، يا للعاملين في المطبخ من أوغـــاد، كيـــف يـــسمحون لأنفسهم بهذا، وهم معتقلون مثلنا!.

وراح شوخوف يأكل قطع الكرنب مع بقايا الـــسائل. وفي كلا الصحنين لم يصادف إلا قطعة بطاطا يتيمة، عثر عليها في صحن قيصر. إنها قطعة متوسطة الحجـــم، وهـــي متجمـــدة بالطبع، وبالتالي فقد كانت صلبة وحلوة المذاق. أما الـــسمك فيكاد يكون معدوماً، وبين الفينة والأخرى يلوح عمود فقري عار، ويجب أن تمضغ كل عمود فقري وكل زعنفة، وتمص ما في داخلها، فعصيرها مفيد. إن هذا كله يحتاج إلى المزيد مـــن الوقت، ولم يكن شوخوف في عجلة من أمره، فلديه اليـــوم عيد: فقد حصل على حصتين على الغداء، وحـــصتين علـــى العشاء. ومن أجل أمر كهذا يمكن تأجيل الأمور الأخرى.

لكن عليه أن يذهب إلى اللاتفي في طلب التبغ، وإلا فقد لا يبقى لديه منه شيء، حتى الصباح.

تناول شوخوف عشاءه بدون خبز: لديه صحنان، وبعد هذا يأكل الخبز أيضاً- سيكون ذلك بطراً، كلا سيأكل الخبز غداً. إن الكرش شريرة، فهي لا تذكر النعم القديمة، وغداً ســـوف تعود إلى الطلب.

كان شوخوف يأكل بالانداه، دون أن يهتم بما يجري حوله، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك: فهو لم يكن يطمع في الحـــصول على شيء جديد، بل كان يتناول حصته الشرعية، ومع هـــذا فقد لاحظ أن مكاناً أصبح شاغراً في مواجهته، وبعد طاولـــة

من طاولته، وكيف جلس في هذا المقعد عجوز طويل يحمل الرقم يو-٨١-.

كان شوخوف يعرف أنه من المجموعة الرابعة والستين، وحين كان شوخوف يقف في الطابور اليوم، من أجل الطرد، سمع أن الرابعة والستين عملت اليوم في الضاحية الاشتراكية. بدلاً من المئة وأربعة، وأمضت النهار كله، بدون تدفئة، في مد الأسلاك الشائكة- لقد بنت بنفسها منطقة لها.

وعن هذا العجوز قيل لشوخوف إنه أمضى مالا يحصى من السنوات في المعسكرات والسجون، وذلك منذ قيام السلطة السوفيتية حتى الآن، دون أن يشمله أي عفو، فما إن تنتهي العشر سنوات، حتى يسلخوه عشراً جديدة.

والآن راح شوخوف يتفحصه عن قرب، وبين كل الظهور المقوسة في المعسكر كان ظهره الأكثر استقامة، وخلف الطاولة بدا وكأنه وضع شيئاً ما تحته على المقعد.

كان رأسه عارياً، خالياً من الشعر، منذ عهد بعيد، فلقد سقط شعره كله بسبب الحياة الرغيدة. ولم تكن عينا العجوز تلاحقان الجميع، وتراقبان ما يجري في المطعم، بل كانتا تنظران نظرة شاردة من فوق شوخوف، كان يأكل برتابة سائل البالاندا، بملعقة خشبية طافحة، لكنه لم يكن منكباً على الصحن، كما الجميع، بل كان يرفع الملعقة عالياً حتى فمه، الخالي من الأسنان العلوية والسفلية، فكانت لثته المتصلبة هي التي تقوم بعملية اللوك، بدل الأسنان. كان وجهه كله منهكاً، لكنه لم يبلغ ضعف ذبالة العاجز، بل كان كما الحجر المصقول، الداكن اللون، ويبدو من يديه الكبيرتين، المليئتين بالأخاديد، والسواد، أنه، على الرغم من طول عهده في

السجن، ما يزال متمسكاً بعادة لا تفارقه: فهو لا يضع غراماته الثلاثمائة من الخبز على الطاولة، المزدانة بالبقع، كما يفعل الجميع، بل في قطعة من القماش نظيفة.

بيد أنه لم يكن لدى شوخوف الوقت لمتابعة تفحصه. فما إن انتهى من الأكل حتى لعق ملعقته، ودسها في الجزمة، ثم ارتدى القبعة، ونهض، وأخذ حصته وحصة قيصر من الخبز، وخرج. كان الخروج من المطعم يتم عبر سلم آخر، حيث يقف مناوبان، لا عمل لهما إلا رفع الخطاف، ليخرج المعتقلون، ومن ثم يعلقانه من جديد.

خرج شوخوف بكرش ممتلئة ومزاج رائق، وقرر أن يجري إلى اللاتفي، على الرغم من أن النفير أصبح وشيكاً. ودون أن يعرج على العنبر التاسع، ليضع الخبز، اندفع على عجل، باتجاه العنبر السابع.

كان القمر قد أصبح عالياً جداً، ويبدو وكأنه منحوت في السماء، أبيض نظيفاً، والسماء كانت كلها صافية. والنجوم، تبدو هنا وهناك، ساطعة جداً. لكن لم يكن لدى شوخوف الوقت لينظر إلى السماء. إنه يعرف شيئاً واحداً- أن الصقيع لن يخف. ولقد سمع أحدهم من الأحرار أن درجة الحرارة ستنخفض مساء إلى ثلاثين درجة، وإلى أربعين درجة تحت الصفر بحلول الصباح.

كان يسمع من بعيد هدير جرار في القرية، ومن جهة الطريق المعبد يتناهى صرير حفارة، وكل جزمة لباد لكل من يمشي في المعسكر أو يجري، تصدر صريراً، حين تحط على الثلج.

وكان الهواء ساكناً.

كان على شوخوف أن يشتري التبغ، كما سبق أن اشتراه في الماضي- روبل واحد للكأس، علماً أن مثل هذه الكأس تساوي ثلاثة روبلات خارج المعتقل، لا بل وأغلى، حسب النوعية. أما في معسكر الأشغال الشاقة فالأسعار خاصة، لا مثيل لها في الخارج، لأن النقود هنا قليلة، وقلة هم أولئك الذين يملكونها، ثم إن حيازتها محظورة، بالتالي فقد كانت النقود غالية جداً هنا. لم يكونوا يدفعون في هذا المعسكر قرشاً واحداً لقاء العمل (في أوست – إيجما كان شوخوف يحصل على ثلاثين روبلاً في الشهر). وإذا ما أرسل الأقارب لأحدهم حوالة بريدية، فإن هذه النقود لم تكن تسلم لصاحبها، بل توضع في حسابه الشخصي. ومن هذا الحساب الشخصي يسمح له مرة في الشهر بشراء الصابون والكعك الفاسد، وسجائر "بريما" في الكشك. وسواء أعجبتك البضاعة، أم لا، فأنت مرغم على أن تشتري بالمبلغ، الذي حددته في طلبك إلى الرئيس، وإذا لم تشتر فإن النقود تذهب هدراً، إذ تم خصمها من حسابك الشخصي.

لم يكن شوخوف يحصل على النقود إلا من العمل الخاص:خياطة الأخفاف من القماش، الذي يقدمه الزبون- روبلان، ترقيع السترة- الأجرة حسب الاتفاق.

لم يكن العنبر السابع شبيهاً بالتاسع، فهو ليس مؤلفاً من شطرين كبيرين، والممر فيه طويل له عشرة أبواب، حشرت في كل من غرفه جماعة، وزعت على سبعة أسرة متعددة الطوابق، وثمة قمرة للمرحاض، وقمرة لرئيس العنبر، كما إن الفنانين يعيشون في قمرتهم.

دخل شوخوف الغرفة، التي يقطن فيها صاحبه اللاتفي. فوجده يرقد في العش السفلي، وقد رفع قدميه عالياً، وأسندهما إلى المنحدر، وهويتحدث باللاتفية مع جاره.

جلس شوخوف بجواره، ثم سلم، فرد ذاك السلام، دون أن يترل رجليه، والغرفة صغيرة، فيصيخ الجميع السمع- من جاء، لماذا جاء. كلاهما يعرف هذا، ولذا فقد بقي شوخوف جالساً يماطل:

- كيف الأحوال؟ لابأس.

- الطقس بارد. نعم.

وانتظر شوخوف إلى أن انصرف الجميع إلى حديثهم (إنهم يتجادلون حول الحرب في كوريا: هل سيؤدي تدخل الصينيين إلى اندلاع حرب عالمية، أم لا)، فمال نحو اللاتفي:

- هل التبغ موجود؟.

- موجود.

- أرني.

أبعد اللاتفي رجليه عن المنحدر، ثم أنزلهما على أرض الممر، ونهض قليلاً. يا له من بخيل هذا اللاتفي، فكلما هم بملء كأس، يتملكه الخوف من أن يضع سيجارة زيادة.

أظهر لشوخوف قبسة، ووضعها في راحة يده، فرأى أنه من النوع نفسه، الذي أخذ منه المرة الماضية، بلونه الرمادي، ورائحته النفاذة. قربه من أنفه، وشمه- إنه هو، لكنه قال للاتفي:

- يبدو أنه ليس ذاك.

- ذاك. ذاك- قال اللاتفي بغضب- ليس لدي نوع آخر أبداً، نوع واحد فقط.

- حسن- وافق شوخوف- املأ لي كأساً، أما أنا فسأدخن، ولربما أخذت كأساً ثانية.

لقد قال له إملأ، لأن ذاك يعبىء الكأس ممسوحة. وأخذ اللاتفي كيس تبغ آخر من تحت الوسادة، أكثر استدارة من الأول، ثم أخرج كأسه من الخزانة الصغيرة. وعلى الرغم من أن الكأس بلاستيكية، فإن شوخوف يعرف، بعد أن كيلها، أنها تعادل الكأس المضلعة.

شرع يصب.

- اخفضه، اخفضه- قال شوخوف، وغرز إصبعه.

- أنا أعرف ذلك بنفسي- قال اللاتفي، وهو ينتزع الكأس، ثم أمال الكيس قليلاً، وعاد يصب التبغ.

وفي هذا الوقت فك شوخوف سترته، وراح يتلمس، داخل البطانة القطنية، الورقة التي لا يمكن أن يحس بها أحد غيره. وراح بيديه يدفعها، ويدفعها تحت البطانة، نحو ثقب صغير، ممزق في مكان آخر تماماً، وتمت خياطته قليلاً بوساطة خيط مزدوج.

وبعد أن أوصلها إلى ذلك الثقب، قطع الخيطين بظفريه، وبعدها طوى الورقة طيتين بالطول، (وحتى بدون هذا كانت مطوية بالطول) ثم سحبها. إنها روبلان، صحيح أنهما عتيقان، لكنهما يخشخشان.

وفي الغرفة يصرخون:

- أن يرثي لكم أبو الشوارب[11]! إنه لا يثق حتى بأخيه الشقيق، فكيف يثق بكم أنتم المغفلين.

---

[11] يقصد ستالين. /المترجم.

الشيء الجيد في معسكر الأشغال الشاقة أن لك مطلق الحرية في قول ما تشاء. أما في أوست- إيجما، فيكفي إن تقول همساً إن الكبريت مقطوع في البلاد، حتى يسلخوك عشر سنوات أخرى. أما هنا فاصرخ من على الأعشاش العلوية ما يحلو لك-. فالوشاة لن يشوا بك، فلم يعد المسؤولون يصغون لهذا النوع من الوشايات.

لكن لا وقت لديهم للحديث هنا طويلاً...

- إيه إنك لم تملأها- قال شوخوف باستياء.

- طيب، هاك- وأضاف قبسة من الأعلى.

أخرج شوخوف كيس تبغه من جيبه الداخلي، وأفرغ محتوى الكأس فيه.

- طيب- حزم أمره، وقرر أن لا يدخن أول سيجارة حلوة على عجل- املأ كأساً ثانية.

وبعد أن تجادلا من جديد، أفرغ الكأس الثانية في كيسه، وأعطى اللاتفي الروبلين، ثم أومأ برأسه محيياً، وانصرف.

ولم يكد يخرج إلى الساحة، حتى انطلق يجري نحوه عنبره، لكي لا يتأخر عن قيصر، حين يعود ذاك، ومعه الطرد.

لكن قيصر كان يجلس على سريره السفلي، وقد فرش محتويات الطرد على السرير، وعلى الخزانة، لكن الضوء لم يكن يصل إلى هناك من المصباح مباشرة، حيث كان ترس شوخوف العلوي يحجبه، فبدا المكان مظلماً قليلاً.

انحنى شوخوف، ودخل بين سرير الرائد البحري وسرير قيصر، ثم مد يده بالحصة المسائية:

- هاك الخبز يا قيصر ماركوفيتش.

إنه لم يقل: "طيب، هل استلمته؟"، لأن في ذلك تلميحاً إلى أنه وقف في الطابور، وله الحق الآن في أن ينال نصيبه.

إنه يعرف أن له الحق، لكنه لم يصبح ابن آوى، حتى بعد ثماني سنوات من أعمال السخرة، وكلما طال الزمن، ازداد صلابة، وثباتاً.

بيد أنه لم يكن قادراً على كبح جماح عينيه، اللتين اندفعتا، كما عيني الحدأة، لدى كل معتقل، وحطتا على محتويات طرد قيصر، الموضوعة على السرير وعلى الخزانة. وعلى الرغم من أن ورق الصر لم يكن مفتوحاً حتى النهاية، ومن أن بعض الأكياس لاتزال مغلقة، فقد كانت هذه النظرة السريعة، بالإضافة إلى حاسة الشم المؤكدة، كافيتين لأن يكتشف شوخوف أن قيصر استلم السجق، والحليب المركز، والسمك المقدد، والشحم، والكعك الفواح، والبسكويت، الذي تفوح منه رائحة أخرى، ومكعبات السكر، قرابة الكيلو غرامين، كما يبدو أنه استلم أيضاً الزبدة والسجائر والتبغ للغليون وشيئاً، شيئاً ما آخر أيضاً.

كل هذا أدركه خلال تلك اللحظة الخاطفة، التي قال فيها:

- هاك الخبز يا قيصر ماركوفيتش.

أما قيصر المبتهج، المشعث، لكأنه مخمور (كل من يستلم طرداً تموينياً يصبح هكذا) فقد لوح بيده على الخبز:

- خذه لنفسك يا إيفان دينيسيتش.

البالاندا، ثم هذه المئتا غرام من الخبز- إنها وجبة عشاء كاملة، هذا عداك عن نصيب شوخوف- بالطبع- من طرد قيصر.

وللحال لم يعد شوخوف ينتظر لنفسه شيئاً من **الأطعمة**، التي نشرها قيصر، فليس أسوأ من أن تمني كرشك بشيء عبثاً.

إن لديه أربعمائة غرام من الخبز وهذه المائتين، ثم إن ما يوجد في الفراش لا يقل عن المائتين. هذا يكفي. لقد جنى الآن مائتين، وغداً صباحاً سيأكل خمسمائة وخمسين، ويأخذ أربعمائة إلى العمل- يالها من حياة مرفهة، أما المائتان في الفراش، فلتبق هناك. ولحسن الحظ أن شوخوف قد خاط الفراش فوقها- فلقد سرقوا حصة أحدهم من الخزانة الصغيرة، هناك في الخامسة والسبعين- والآن دع السوفيات الأعلى يعدها لك.

البعض يفهم على هذا النحو صاحب الطرد، كيس محشو، فاخطف من صاحب الطرد! لكن الواقع أن ما يأتيه بسهولة يذهب بسهولة. فقد يصدف قبل وصول الطرد أن صاحبه يكون سعيداً في الحصول على عصيدة زائدة، وقد يندفع لاصطياد أعقاب السجائر. وكيف لا يعطي صاحب الطرد السخيف المراقب ورئيس المجموعة؟ وإلا فإن المراقب يقوم في المرة القادمة بإخفاء طردك، بحيث لا يظهر اسمك في الجدول، إلا بعد أسبوع، ثم ذاك الذي يحرس كل محتويات الطرود في قسم الأمانات. فغداً، قبيل الاجتماع الصباحي، سيحمل قيصر طرده في كيس، يسلمه لهذا الحارس (خوفاً من اللصوص ومن المفتشين، ثم إن هذه أوامر القائد)- وإن لم تعط ذلك الحارس جيداً، فإنه سوف يسرق منك من الفتات أكثر. إنه يجلس النهار كله هناك، الجرذ. وراء باب مغلق، بين مواد الآخرين الغذائية، جرب أن تراقبه! ثم لقاء الخدمات، كتلك، التي قدمها شوخوف؟ والحمامي، الذي ينتقي لك الثياب اللائقة، مهما

يكن لابد من إعطائه. والحلاق، الذي يحلق لـــك مـــستخدماً الورق (أي أنه يمسح الموسى بالورق، لا بركبتك العاريـــة)، ليس كثيراً، لكن لا أقل من ثلاث- أربع سجائر. وفي البريد، كي يضع لك رسائلك على حدة، ولا تضيع. وإذا ما أردت أن تتمارض يوماً، وتبقى في المنطقة لترتاح- عليك أن تعطي الطبيب. وجارك، الذي يتناول الطعام إلى جانبك، كما الرائد البحري بالنسبة لقيصر كيف لا تعطيه؟ فهو يحصي كل لقمة، لديك، حتى عديم الضمير، لا يتحمل، فيعطيه.

وهكذا دعهم ينظرون إلى الآخرين بعين الحسد، أما هـــو، شوخوف، فيفهم الحياة، ولا يطمع بالتطاول على ما لا يخصه.

وفي هذا الوقت خلع جزمته، وصعد إلى عشه العلـــوي، ثم أخذ قطعة النصل من القفاز، وبعد أن تفحـــصها، قـــرر أن يبحث منذ الغد عن حجر جيد لسنها، بحيث تصبح ســـكين حذاء، وخلال أربعة أيام، وإذا ما عمـــل صـــباحاً ومـــساء، ستكون لديه سكين ممتازة، ذات حد قاطع.

أما الآن، وحتى الصباح يحسن به أن يخبىء النصل، وسوف يدسها في ترسه، بعد الحزمة العرضانية. وما دام الرائد البحري غير موجود الآن تحت، وكي لا يقع شيء من النشارة علـــى وجهه، قلب شوخوف طرف فراشه عند رأسه، وهو فـــراش ليس محشواً بنثار الخشب، بل بالنشارة، وخبأ النصل هناك.

ولقد رآه جيرانه في الأعشاش العليا، وهو يقوم بذلك: اليوشكا المعمداني والإستونيان الأخوان، اللذان لا يفصلهما عنه سوى الممر، لكن شوخوف لم يكن يتخوف منهم.

ومر فيتيوكوف عبر العنبر، وهو مقوس الظهر، وقد تلطخت شفته بالدم. هذا يعني أنهم ضربوه هناك، بسبب الـــصحون.

ودون أن ينظر إلى أحد، ودون أن يخفي دموعه، مــر بجــوار المجموعة كلها، وتسلق إلى سريره، ثم دفن رأسه في الفراش.

والحقيقة أنه يستحق الرثاء، لن يخرج من هنا حياً، فهــو لا يجيد تدبير أموره.

وهنا ظهر الرائد البحري مرحاً، وقد جلب معه في الوعــاء شاياً من نوع خاص. في العنبر يوجد برميلان من الشاي، لكن أي شاي هذا؟ مجرد ماء دافئ مصبوغ. شيء تافه، تفوح منه رائحة البرميل- رائحة العفونة- إنه شاي للعمال البسطاء، أما بونيوفسكي فقد أخذ من قيصر حفنة من الــشاي الحقيقــي، وألقى بها في الوعاء، ثم جرى إلى حيث الماء الغالي.

إنه الآن يجلس في الأسفل، وراء خزانته، وهــو في غايــة السرور، وقال متباهياً:

- لقد كدت أحرق أصابعي تحت سيل الماء الغالي.

هناك في الأسفل شرع قيصر في فرش ورقة، وراح يــضع عليها هذا الشيء وذاك. ولكي لا يرى شــوخوف ذلــك، فيتعذب، أغلق الفراش. ومن جديد لا يمكن للأمور لديهم أن تستقيم بدون شوخوف، فقد نهض قيصر، بكامــل قامتــه، ووقف في الممر، وراح ينظر بعينيه، الموجهتين لشوخوف، وهما ترفان:

- دينيسيتش! هناك... أعطني عشرة أيام!.

هذا يعني أن يعطيه السكين الصغيرة، القابلة للطي. ومثــل هذه موجودة لدى شوخوف، وهي مخبأة، بدورها، في الترس.

وعلى الرغم من أن هذه السكين أصغر من عظم الإصــبع الوسطى المطوية،فإنها قاطعة جداً، حيث تقطع الشحم ثخــن

خمس أصابعٍ. وكان شوخوف قد صنعها بنفسه، وشحذها بنفسه أيضاً.

مد يده، وأخرج السكين، ثم أعطاها لقيصر، الذي لوح برأسه شاكراً، واختفى.

والسكين بدورها مصدر رزق، علماً أن الاحتفاظ بها محفوف بالخطر- الزج في الانفرادي- فقط من ليس لديه وجدان يمكن أن يتصرف على النحو التالي: أعطنا السكين، لنقطع بها السجق، أما أنت فلن تفوز بطائل.

من جديد أصبح قيصر مديناً لشوخوف.

بعد أن فرغ شوخوف من موضوع الخبز والسكينين، أخرج كيس التبغ، وللحال أخذ منه قبسة، تعادل تلك التي اقترضها، ومدها للاستوني، عبر الممر، شاكراً.

مط الإستوني شفتيه، كأنه يبتسم، وقال شيئاً ما لأخيه، ثم لفا هذه القبسة في سيجارة، ليجربا- إذن- تبغ شوخوف.

جرباه بالصحة والعافية، فهو ليس بأسوأ من تبغكما.

وكان بود شوخوف نفسه أن يتذوقه، لكنه أحس، وكأن لديه ساعة، هناك في الداخل، أن التفقد أصبح وشيكاً. إنه الوقت الذي يجوس فيه المراقبون عبر العنابر، ولكي يدخن الآن عليه أن يخرج إلى الدهليز، لكنه يشعر هاهنا، في سريره وكأن الجو أكثر دفئاً. أما في العنبر فالجو ليس دافئاً أبداً، فالقشب الثلجي إياه تراه في السقف. في الليل تتجمد من البرد، لكن الوضع لا يزال محتملاً، كما يبدو.

شرع شوخوف يقضم من المئتي غرام من الخبز، وهو يصغي على غير إرادة منه، إلى الرائد البحري وقيصر، يتحدثان في الأسفل، وهما يشربان الشاي.

- كل أيها الرائد، كل لا تخجل. هاك خذ من السمك المقدد، وخذ من السجق أيضاً.

- شكراً لك، إنني آخذ.

- ادهن الخبز بالزبدة، إنه خبز موسكوفي حقيقي.

- آي، آي، آي، يكاد المرء لا يصدق أن مثل هذا الخبز لا يزال يصنع في مكان ما. الواقع أن هذه الوفرة المفاجئة تذكرني بالحادثة التالية. كان ذلك في سيفاستوبل، قبيل مؤتمر يالطا.

كان الجوع يضرب أطنابه في المدينة، ومن أجل ذر الرماد في عيني الأدميرال الأمير كي، أُنشئَ مخزن خاص طافح بالمواد الغذائية، على أن لا يفتح أبوابه، إلا بعد أن يرونا على بعد نصف حي، لكي لا يلحق السكان، فيأتوا على الأخضر واليابس، ومع ذلك فخلال دقيقة واحدة اكتظ المخزن بالناس. ولا تسل عن الأصناف. ويصيحون:

"زبدة، انظر، زبدة، خبز أبيض".

كان اللغط يملأ العنبر، تطلقه مئتا حنجرة، ومع هذا فقد خيل لشوخوف أنه سمع رنين السكة الحديدية، لكن أحداً لم يسمع ذلك.

كما لاحظ شوخوف أن المراقب كورنوسينكي قد دخل العنبر، وهو شاب صغير جداً، ذو وجه متورد. كان يحمل في يديه ورقة، ولذا فقد كان واضحاً انه لم يأت لاصطياد المدخنين، ولا لإخراجهم لإجراء التفقد، بل جاء يبحث عن أحدهم.

نظر المراقب في الورقة، وسأل:

- أين المئة وأربعة؟.

- هنا- ردوا عليه. أما الإستونيان فقد خبـآ السيجارة، وحاولا تشتيت الدخان.
- وأين رئيسها؟.
- نعم- قال تيورين، وقد أنزل قدميه عن السرير قليلاً.
- هل كتبتم المذكرات التوضيحية؟.
- إنهم يكتبونها- رد تيورين بثقة.
- يجب أن تكون قد سلمت.
- إن من لدي شبه أُميين، والأمر ليس بالسهل (إنه يقصد قيصر والرائد البحري. أحسنت أيها الرئيس، فأنت حاضر البديهة دائماً)، ثم إنه لا أقلام لدينا، وليس لدينا حبر.
- يجب أن يكون لديكم.
- يصادرونه.
- اسمع يا رئيس المجموعة، إذا كنت ستكثر الحديث، فسأزج بك أيضاً- قال كورنوسينكي، بلهجة شبه ودية- حتى صباح الغد، قبل الاجتماع الصباحي، يجب أن تكون المذكرات التوضيحية في قلم المراقبين، وأن يشار إلى أن كل الأشياء المحظورة قد سلمت إلى مكتب الحاجيات الشخصية. مفهوم؟.
- مفهوم.
("لقد نجا الرائد البحري"- ظن شوخوف، أما الرائد البحري نفسه فكان في واد آخر، لا يسمع شيئاً، وهو لاهٍ عن ذلك كله بالضحك، وتناول السجق).
- والآن- أردف المراقب- شي- ثلاثمائة وأحد عشر،- عندك؟.
فرد الرئيس متهرباً:

- لابد من النظر في الجدول، فهل يمكن أن تتذكر أرقامهم اللعينة؟.

(إن الرئيس يماطل، يريد أن ينقذ بوينوفسكي، ولو لهذه الليلة، أن يؤجل الأمر حتى التفقد).

- بوينوفسكي- موجود؟.

- آه؟ نعم. رد الرائد من مكمنه، تحت سرير شوخوف.

فعلاً إن القملة الأسرع هي أول من تسقط في براثن المشط.

- أنت؟!. صحيح، شي- ثلاثمائة وأحد عشر. هيا.

- إلى أين؟.

- إنك تعرف.

اكتفى الرائد بالتأوه والتنحنح. من الواضح أن الخروج إلى عرض البحر العاصف، في حلكة الليل، كان أسهل عليه من الانتقال من هذا الحديث الودي إلى الانفرادي الجليدي.

- كم يوماً؟- سأل بصوت منهار.

- عشرة. والآن هيا، هيا بسرعة.

وهنا صاح المناوبون:

- تفقد، تفقد، اخرجوا للتفقد:

هذا يعني أن المراقب، الذي أُرسل لإجراء التفقد، قد أصبح في العنبر.

تلفت الرائد- هل يأخذ السترة؟ إذا ما أخذ السترة، فسوف ينتزعونها هناك، ولن يتركوا له إلا المعطف. وهذا يعني: إذ هب كما أنت. كان الرائد يأمل أن يسامحه فولكافوي (لكن فولكافوي لا يمكن أن يسامح أحداً على أي شيء)، فلم يجهز نفسه، حتى أنه لم يخبىء التبغ في المعطف، أما أن يأخذ بيده،

فعبثاً، فللحال سوف ينتزعونه منه عند التفتيش. ومع هـــذا، فبينما كان يرتدي القبعة، دس له قيصر سيجارتين.

طيب، بخاطركم يا إخوان! — قال الرائد، وهو يلوح برأسه بارتباك للمجموعة مئة وأربعة، ثم سار خلف المراقب.

وصاحت عدة أصوات في إثره، بعضها- تشجع، وبعضها- كن رابط الجأش، ثم ماذا يمكن أن تقول له؟.

إنهم هم من بني السجن. وتعرف المجموعة مئة وأربعـــة أن الجدران هناك حجرية. والأرضية إسمنتية، وليس ثمة أية طاقة، ولا يشعلون المدفأة إلا فقط كي يذوب الجليد عن الجـــدران، ويتجمع في بركة على الأرضية. والنوم على ألـــواح خـــشبية عارية، إذا كنت قادراً على النوم، وأسنانك تصطك، والخبز- ثلاثمائة غرام في اليوم، أما البالاندا فلا تقدم إلا في اليوم الثالث والسادس والتاسع.

عشرة أيام! عشرة أيام في الانفرادي هنا، إذا ما أمـــضيتها بسلام، وحتى النهاية- فهذا يعني حرمانك من الصحة مـــدى الحياة. فتصاب بمرض السل، وستبقى أبداً في عداد المرضى.

أما من أمضى في الانفرادي خمسة عـــشر يومـــاً، فهـــؤلاء أصبحوا في عداد الأموات.

ما دمت تعيش في العنبر، فصل لله أن لا يحرمك من هـــذه النعمة، وحاذر أن تقع.

ويصرخ رئيس العنبر:

هيا اخرجوا، سوف أعد حتى ثلاثة، ومن لا يخـــرج قبـــل ذلك، سأسجل رقمه وأسلمه للمواطن[12] المراقب.

---

[12] لا يسمح للمعتقل بمخاطبة رؤسائه بكلمة رفيق، وإنما بكلمة مواطن. /المترجم.

يا لرئيس العنبر من حقير تافه. فهو يزرب معنا في العنبر، الليل بطوله، لكنه يعتمد على القيادة، ولا يخاف أحداً، على العكس، الجميع يخافونه، فقد يشي بهذا المراقب، وقد يلطم ذاك على بوزه. وهو مصنف عاجزاً، لأنه فقد إصبعه في إحدى المشاجرات، ولكن سحنته، سحنة مجرم.

وهو مجرم فعلاً، بالمادة الجنائية، وبين المواد الأخرى سلخوه بالمادة الثامنة والخمسين- أربعة عشر، ولذا فهو هنا، في هذا المعسكر.

وما الذي يردعه، الآن سوف يسجل الأسماء في ورقة يسلمها للمراقب، فتحصل على الانفرادي ليومين مع الخروج للعمل. وبعد أن كانوا يتحركون فرادى ببطء نحو الباب، إذا هم يندفعون زرافات، زرافات. ومن على الأسرة العلوية راحوا يقفزون كالدببة، وينحشرون في الباب الضيق.

قفز شوخوف بمهارة، وهو يمسك بيده السيجارة الملفوفة، والتي طال شوقه إليها، ودس قدميه في الجزمة، وهمَّ بالذهاب، غير أنه شعر بالشفقة على قيصر. كلا لم يكن راغباً في الحصول منه على مكسب جديد، بل أشفق عليه من كل قلبه: لاشك أن قيصر يعتبر نفسه في غاية الأهمية، لكنه لا يفقه في أمور الدنيا شيئاً: ما دمت تلقيت طرداً، فالأحرى بك أن تحمله قبل التفقد، وتسرع به إلى قسم الأمانات، بدل أن تقوم باستعراض ما فيه.

تريد أن تأكل، يمكن أن تترك لنفسك القليل. أما الآن فماذا يفعل قيصر بالطرد؟، هل يذهب إلى التفقد، حاملاً هذا الكيس، شيء مضحك. سوف ينطلق الضحك من الخمسمائة حنجرة. أم يتركه هنا، في ساعة نحس قد يسرقونه، أولئك

الذين سيكونون أول من يعود إلى العنبر، بعد التفقد. (ففي أوست – إيجما، وعلى الرغم من القوانين الأكثر صرامة من هنا، كان اللصوص يسبقون المجموعات العائدة من العمل، في دخول العنابر، وحين تدخل الصفوف الخلفية تكون خزاناتهم الصغيرة قد نظفت).

ويرى شوخوف قيصر، وقد راح يحوص ويلوص، وهو في حيرة من أمره، لكن الوقت فات. وهاهو يدس السجق والشحم في عبه، سيخرج بهما إلى التفقد، المهم أن ينجو بهما على الأقل.

رثى شوخوف له، وراح يعلمه:

- اجلس يا قيصر ماركوفيتش، حتى آخر واحد، تخف هناك، في العتمة، وابق جالساً حتى آخر واحد. وحين سيطوف المراقب مع المناوبين على الأسرة لتفحصها، وينقبون في كل ثقب، حينذاك تخرج، وتزعم أنك مريض، أما أنا فسأكون أول الخارجين، وأول من سيعود إلى هنا.

وانطلق يجري، لا يلوي على شيء.

في البداية وجد شوخوف صعوبة في حشر نفسه (لكنه ظل حريصاً على السيجارة الملفوفة في قبضته). أما في الدهليز المشترك لكلا شطري العنبر، وفي غرفة المدخل، فلم يعد أحد يتدافع نحو الأمام، يا لهم من ملاعين، إنهم يلتصقون بالجدران، صفان من اليسار وصفان من اليمين، تاركين ممراً في الوسط، يكفي لشخص واحد: فليخرج إلى الصقيع ذاك الأحمق، أما نحن فسنبقى هنا. ألم يكفنا نهار كامل في الصقيع، حتى نتجمد عشر دقائق أخرى الآن؟ لا يوجد حمقى، أفطس أنت اليوم، أما أنا فغداً.

وفي الأحوال العادية فإن شوخوف بدوره يلتصق بالجدار، أما الآن فها هو يخرج بخطوات واسعة، ويزمجر أيضاً:

- ما بالكم خفتم أيها السخفاء؟ ألم يسبق لكم أن رأيتم الصقيع السيبيري؟ اخرجوا إلى الشمس الذئبية، وتدفأوا.

دعني، دعني أدخن يا عم.

دخن في غرفة المدخل، وخرج إلى المصطبة. "الشمس الذئبية"، هكذا يسمون القمر في منطقة شوخوف، من باب المزاح.

ارتفع القمر عالياً، وبعد أن يقطع مسافة أخرى كهذه، يصبح في الذروة تماماً. السماء بيضاء، ضاربة للخضرة، والنجوم متلألئة، لكنها نادرة. الثلج يلمع أبيض، وجدران العنابر بيضاء هي الأخرى، والمصابيح لا تؤثرإلا قليلاً.

عند ذاك العنبر بدأ الزحام الأسود يزداد كثافة، إنهم يخرجون، ويصطفون، وعند ذاك أيضاً، وبين العنبر والعنبر لا تسمع لغط الكلام، بقدر ما تسمع صرير الثلج، تحت الأقدام.

نزل عن السلم خمسة أشخاص، وقفوا ووجوههم نحو الباب، ومن ورائهم وقف ثلاثة، وإلى هؤلاء الثلاثة، في النسق الثاني، انضم شوخوف. إن بالإمكان الوقوف هنا، بعد أن مضغت الخبز، والسيجارة في فمك. إنه تبغ جيد، لم يغشك اللاتفي، فهو ثقيل وفواح.

وبالتدريج بدأوا يتوافدون من الباب، واصطف وراء شوخوف نسقان- ثلاثة. والآن استبد الغضب بأولئك، الذين خرجوا:

ما بال أولئك الأوغاد قد التصقوا بالممر، فلا يخرجون، أما أنت فتجمد بسببهم.

إن أيا من المعتقلين لا يرى الساعة أبداً، ثم ما حاجتهم إليها، إلى الساعة؟ فالمعتقل لا يهمه إلا أن يعرف- هل اقترب موعد الاستيقاظ؟ كم بقي حتى الاجتماع؟ حتى الغداء؟ حتى النوم؟.

ومع هذا يقال إن التفقد المسائي يجري في التاسعة، لا ينتهي في التاسعة أبداً، حيث يجرون التفقد مرتين وثلاث مرات. ولن تنام قبل العاشرة، وفي الساعة الخامسة يدفعونك، إنه الاستيقاظ. وليس بغريب أبداً أن المولدوفي قد غفا اليوم قبيل الانصراف. فحيث يشعر المعتقل بالدفء يغف على الفور. وخلال أسبوع يتراكم لديه الكثير من ديون النوم، لدرجة أنهم إذا لم يسوقوهم إلى العمل يوم الأحد، تَرَ جميع من في العنابر نياماً.

هيا، هيا، انزلوا عن السلم، راح رئيس العنبر والمراقب يدفعونهم من الخلف. ادفعوهم، هؤلاء الوحوش.

- ماذا؟ - يصيحون بهم من الأنساق الأولى- هل تحتالون يا أوغاد؟ هل تجمعون القشدة على حسابنا؟ لو أنكم خرجتم من زمان، لكنا قد انتهينا من زمان.

ساقوا كل من العنبر إلى الخارج. في العنبر أربعمائة شخص، هذا يعني ثمانين خمسة، راحوا يصطفون في الذيل. في البداية خمسة، خمسة تماماً، ومن ثم دبت الفوضى.

- هيه، انتظموا هناك في الخلف، زعق رئيس العنبر من فوق السلم.

لكنهم لا ينتظمون، الأبالسة.

خرج قيصر من الباب، وهو ينكمش من البرد، كالمريض، ومن خلفه المناوبان في الشطر الثاني من العنبر، والمناوبان من هذا الشطر، بالإضافة إلى أحد العرجان، وقد وقفوا في النسق

الأول، بحيث أصبح شوخوف في النسق الثالث، أما قيصر فقد أرسلوه إلى الذيل.

خرج المراقب إلى المصطبة، وصاح بصوته القوي، بمن في الخلف:

- اصطفوا خمسة، خمسة.

وبدوره زعق رئيس العنبر، بصوته الأقوى:

- اصطفوا خمسة، خمسة.

لكنهم لا ينتظمون، الملاعين.

واندفع رئيس العنبر عن السلم إلى الخلف، وهو يصب الشتائم، ويضرب على القفا.

لكن، انظروا من يضرب- المطيعين فقط.

انتظموا، فعاد، وراح يصيح مع المراقب:

- الأولى، الثانية، الثالثة.

والخمسة، التي يذكر رقمها، تندفع بأقصى سرعة إلى العنبر.
لهذا اليوم صفوا حساهم مع قائد المعسكر.

صفوا حساهم، إذا لم يكن هناك تفقد ثان.

فهؤلاء الطفيليون أسوأ في العد من أي راع: إنه، وإن يكن أمياً، يعرف، وهو يسوق القطيع، ما إذا كانت كل الدواب موجودة، أما هؤلاء فلا يكفون عن سوقنا جيئة وذهاباً، لكن عبثاً.

الشتاء الماضي لم تكن ثمة غرف تجفيف في هذا المعسكر، فكانت الأحذية تترك في العنبر ليلاً- على هذا النحو كانوا يسوقون المعتقلين إلى الخارج، لإجراء التفقد الثاني والثالث والرابع. و لم يكونوا يرتدون ثياهم، بل يتدثرون بالبطانيات، ويخرجون.

ومنذ هذا العام بنوا غرف التجفيف في المعسكر، صحيح أن عددها ليس كافياً، فكل ثلاثة أيام يأتي دور كل مجموعة في تجفيف الجزمات. وهكذا فقد أصبح التفقد الثاني يجري داخل العنابر، حيث يسوقون المعتقلين من هذا الشطر إلى ذاك.

صحيح أن شوخوف لم يكن أول الداخلين، لكنه لم يرفع عينيه عن ذاك، الذي سبقه، وما إن بلغ سرير قيصر عدواً، حتى جلس، وبعد أن خلع جزمته، تسلق السرير قرب المدفأة، ومن هناك وضع جزمته على المدفأة، فالمكان هنا لمن يسبق، ثم عاد إلى سرير قيصر. كان جالساً طاوياً رجليه، وهو ساهر بإحدى عينيه على كيس قيصر، كي لا يسرقوه من تحت الفراش، وبالأخرى على جزمته اللبادية، كي لا يأخذها أولئك، الذين يهاجمون المدفأة.

ولقد اضطر لأن يصيح:

- هيه، أنت أيها الأصهب! ما رأيك أن أسلخك بالجزمة على بوزك؟ ضع جزمتك، لكن لا تمس ما لا يخصك.

ويتدفق المعتقلون، يتدفقون على العنبر، ويصيحون في المجموعة العشرين:

- سلموا جزمات اللباد.

الآن سوف يخرجونهم من العنبر مع جزماتهم، ثم يوصدون العنبر، وبعدها سوف يجرون:

- أيها المواطن الرئيس! اسمحوا لي بدخول العنبر.

أما المراقبون فسوف يلتقون في عنبر القيادة، ويطابقون بين لوحات التفقد وسجلات المحاسبة، لمعرفة ما إذا كان أحد قد هرب، أم أن الجميع حاضرون.

لكن شوخوف غير مهتم بهذا اليوم. وها هو قيصر يحشر نفسه بين الأسرة.

- شكراً يا إيفان دينيسيتش.

لوح شوخوف برأسه، وكما ابن عرس تسلق إلى الأعلى بسرعة. الآن بوسعه أن يأتي على ما بقي من المئتي غرام، وبوسعه أن يدخن السيجارة الثانية، وبوسعه أن ينام.

لكن شوخوف شعر بالمرح، لكثرة ما حالفه الحظ اليوم، حتى أنه شعر وكأنه لا يريد النوم.

أن يجهز شوخوف سريره أمر في منتهى البساطة: ينتزع البطانية القطنية السوداء عن الفراش (لم ينم شوخوف على الشرشف، على الأرجح، منذ عام واحد وأربعين، أي منذ أن غادر البيت، حتى أنه يعجب للنساء اللواتي يستخدمن الشراشف، ويهدرن الوقت على غسلها)، ويضع رأسه على الوسادة، المحشوة بنشار الخشب، ثم يدس قدميه في معطفه، ويتغطى بالبطانية والسترة، و-

- حمداً لك يا رب، فقد انصرم يوم آخر.

حمداً لك أنني لا أنام في الانفرادي، فهنا النوم مقبول.

رقد شوخوف، ورأسه باتجاه النافذة، أما أليوشكا فرقد في السرير نفسه، لا يفصل بينه وبين شوخوف سوى ضلع لوح خشبي، وقد أدار رأسه كي يصله ضوء المصباح، فهو منكب على قراءة الإنجيل من جديد.

والمصباح ليس ببعيد جداً عنهما، فالقراءة ممكنة، وحتى الخياطة ممكنة.

سمع أليوشكا شوخوف، وهو يحمد الله، بصوت عال، فالتفت ناحيته:

- ها إن روحك يا إيفان دينيسوفيتش تهفو لأن تصلي لله، فلماذا لا تتركها وشأنها، آه؟.

ألقى شوخوف على أليوشكا نظرة جانبية، كانت عيناه دافئتين، كأنهما شمعتان، ثم تنهد بعمق.

- لأن الصلوات يا أليوشكا، مثلها مثل الالتماسات، إما أنها لا تصل، وإما أن يأتي الجواب"رفضت الشكوى". أمام عنبر القيادة توجد أربعة صناديق للالتماسات وكلها مختومة، وفي كل شهر يقوم المفوض بإفراغها، الكثيرون يلقون الالتماسات في تلك الصناديق، وينتظرون، ثم يحسبون الوقت: لكن الجواب لا يأتي، وإن أتى، فهو: "مع الرفض".

- لأنك يا إيفان دينيسيتش لم تصل إلا قليلاً، وبشكل سيء، وبدون حماسة، ولهذا لم تستجب صلواتك. يجب أن يثابر المرء على الصلاة، وإذا ما كان مؤمناً، وقال لهذا الجبل أن ينتقل من مكانه، فلسوف ينتقل.

ابتسم شوخوف ساخراً، وعاد يلف سيجارة أخرى، وراح يدخن لدى الإستوني.

- كفاك ثرثرة يا أليوشكا، لم يسبق أن رأيت الجبال تسير، والحقيقة أنه لم يسبق لي أن رأيت الجبال نفسها. أما أنت فقد كنت في القوقاس تصلي مع كل ناديك المعمداني- فهل انتقل أي جبل من مكانه هناك؟.

وهؤلاء مساكين أيضاً: كانوا يتعبدون ربهم، ولا يضايقون أحداً، ولقد سلخوا كلا منهم خمسة وعشرين عاماً، ففي الوقت الراهن لا يعطون إلا خمسة وعشرين عاماً، مكيال موحد.

– إننا لا نصلي من أجل ذلك يا دينيسيتش، قال أليوشكا، وانتقل إلى شوخوف، حاملاً إنجيله، ثم قربه من وجهه، من كل دنيوي وفان أوصانا الرب فقط ب"خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم".

- يعني حصة؟، سأل شوخوف.

أما أليوشكا فيستمر في محاولة إقناعه، بعينيه أكثر منه بكلامه، ثم يروح يحنو على يده بيده، ويمسدها.

- إسمع يا إيفان دينيسيتش! يجب أن يصلي المرء، لا من أجل أن يرسلوا له طرداً، ولا من أجل الحصول على وجبة إضافية من البالاندا، فما هو رفيع لدى البشر، إن هو إلا رذيلة أمام الرب. يجب أن يصلي المرء من أجل ما هو روحي: من أجل أن يطهر الرب قلوبنا من الرغوة الشريرة...

- الأفضل أن تسمع ما سأقول لك. إن لدينا خورياً في كنيسة بولومين...

- لا داعي للحديث عن خوريك، راح أليوشكا يرجوه، حتى أنه قطب جبينه من الألم.

- كلا، ومع هذا اسمع، ورفع شوخوف نفسه مستنداً إلى مرفقه، لا يوجد في بولومين، في أبرشيتينا، أغنى من الخوري، وحين يطلبوننا، مثلاً، لبناء السقف، فإننا نأخذ من عامة الناس خمسة وثلاثين روبلاً في اليوم، أما من الخوري فنأخذ مئة، لكنه لا يعترض أبداً. فهو، ذلك الخوري من بولومين، يدفع النفقة الشرعية لثلاث زوجات في ثلاث مدن، ويعيش مع الرابعة تحت سقف واحد، ومطرانية المنطقة كلها في يده، فهو يغدق عليها الكثير من النعم، ولقد طرد جميع الخوارنة الآخرين، الذين أرسلوا إلينا، فهو لا يريد أن يشاطره أي كان...

- لماذا تحدثني عن الخوري؟ إن الكنيسة الأرثوذكسية قد ارتدت عن الإنجيل، فتراهم لا يسجنونهم، ولا يعطونهم خمسة أعوام، لأن إيمانهم ليس صلباً.

كان شوخوف ينظر، وهو يدخن، إلى اضطراب أليوشكا.

- أليوشا- قال شوخوف، وأزاح يد أليوشكا، ثم نفث دخان سيجارته في وجه المعمداني. الواقع أنني لست ضد الرب، فأنا أؤمن بكل ارتياح، لكنني لا أؤمن بالجنة والجحيم. لماذا تعتبروننا أغبياء، وتعدوننا بالجنة والجحيم؟ هذا هو ما لا يعجبني.

مرة أخرى رقد شوخوف على ظهره، وراح يرمي الرماد بحذر خلف رأسه، بين السرير والنافذة، بحيث لا تحترق أغراض الرائد، وانصرف إلى أفكاره، فلم يسمع ما كان يبربر به أليوشكا هناك.

وقال أخيراً:

- وإجمالاً مهما صليت، فلن يخففوا من مدة حكمك، ولسوف تبقى سجيناً من الجرس إلى الجرس، كما يقال.

واحتج إليوشكا بانفعال:

- لا داعي لأن تصلي من أجل ذلك، فما حاجتك إلى الحرية، ففي الخارج سوف تخمد الأشواك ذبالة إيمانك. يجب أن تبتهج كونك في السجن، فهنا لديك الوقت لأن تفكر بروحك. يقول بولص الرسول:

"ماذا تفعلون، تبكون وتكسرون قلبي لأني مستعد ليس أن أربط فقط، بل أن أموت أيضاً في أورشليم لأجل اسم الرب يسوع".

كان شوخوف ينظر بصمت إلى السقف، إنه هو نفسه لا يعرف إن كان يريد الحرية أم لا.

في البداية كان يتوق إلى ذلك، وكل مساء كان يحصي عدد الأيام، التي انصرمت من الحكم، وعدد الأيام الباقية منه، ثم لم يلبث أن مل ذلك.

وفيما بعد بدأ يتضح أنه لا يسمح لأمثاله بالعودة إلى البيت، بل ينفون. ثم أين ستكون حياته أفضل- هنا، أم هناك- إنه يجهل ذلك.

ومع هذا فهو لا يريد أن يطلب من الله شيئاً إلا أن يعود إلى البيت، لكنهم لا يتركونه يعود إلى البيت.

إن أليوشكا لا يكذب، فمن الواضح من صوته ومن عينيه أنه سعيد بالبقاء في السجن، فقال له موضحاً:

- اسمع يا أليوشكا، إن الأمور بالنسبة لك تبدو على ما يرام: فالمسيح أمرك أن تسجن، ومن أجل المسيح سجنت. لكن لماذا سجنت أنا؟ ألأننا لم نكن مستعدين للحرب في عام واحد وأربعين، ألهذا؟ لكن ما دخلي أنا؟.

وبدأ كيلديغس يتذمر من على سريره:

- يبدو أنه لن يكون هناك تفقد ثان...

- أجل- رد شوخوف- يجب أن يسجل ذلك في قائمة الأمور النادرة، ثم تثاءب، حان وقت النوم.

وهنا مزق صمت السكون، الذي بدأ يخيم على العنبر، طرق على الباب الخارجي، ودخل من الدهليز ركضاً اثنان من أولئك، الذين سلموا جزماتهم اللبادية، وصاحا:

- التفقد الثاني.

وهنا صاح المراقب في إثر هما:

- اخرجوا إلى الشطر الآخر من العنبر.

كان البعض نياماً. راحوا يتذمرون، وهم يدسون أقدامهم في جزماتهم اللبادية (قلة منهم كانت تنام في السراويل الداخلية، فالجميع ينام بالبناطلين القطنية، وإلا سوف تتجمد من البرد، تحت البطانية).

- تباً! اللعنة — راح شوخوف يشتم، لكنه لم يغضب كثيراً، لأنه لم يكن قد غفا بعد.

مد قيصر يده نحو الأعلى، ووضع له قطعتي بسكويت وقطعتي سكر، وقطعة مدورة من السجق.

- شكراً يا قيصر ماركوفيتش- انحنى شوخوف نحو الأسفل، عبر الممر، والآن هات كيسك، فهو هنا في الأعلى، تحت رأسي، سيكون بأمان (من الصعب أن تسرقه فوق بمثل هذه السرعة، ثم من يمكن أن يبحث عن شيء لدى شوخوف)؟.

ناول قيصر كيسه الأبيض المربوط لشوخوفِ في الأعلى، فوضعه هذا تحت فراشه، وراح ينظر إلى أن يخرج الكثيرون، بحيث لا يضطر للوقوف في الدهليز، حافي القدمين، إلا قليلاً، لكن المراقب كشر عن أنيابه:

- هيه أنت، هناك في الزاوية!.

فقفز شوخوف على الأرض بخفة، وهو حاف.

(كانت جزمته والضمادات في مكان دافئ على المدفأة، ولم يطاوعه قلبه على أخذها. كم من الأخفاف خاط، لكنها كلها الآخرين، ولم يترك لنفسه شيئاً، غير أنه اعتاد على الوقوف حافياً، ثم إن الأمر لن يستمر طويلاً.)

حتى الأخفاف يصادرونها، إذا ما عثروا عليها لديك نهاراً.

وتلك المجموعات، التي وضعت جزماتها في غرفة التجفيف، قد حالفها الحظ هي الأخرى، وبعضهم في الأخفاف، وآخرون في الأربطة فقط، وقد لفوها حول أقدامهم، والبعض الآخر حاف.

- هيا، هيا- زمجر المراقب.

وانضم إليه رئيس العنبر:

- تريدون الشخير، أيها الأولاد؟.

ساقوا الجميع إلى ذلك الشطر من العنبر، أما المتأخرون فقد أبقوهم في الدهليز. وهنا وقف شوخوف لدى الجدار، بالقرب من المرحاض، كانت الأرضية تحت قدميه مبللة، وكان الهواء البارد يأتي من المدخل.

أخرجوا الجميع، ثم عاد المراقب ورئيس العنبر لينظرا ما إذا كان أحد قد اختبأ، ما إذا كان أحد قد التجأ إلى ركن مظلم، ونام، لأنه إذا كان العدد ناقصا فتلكً مصيبة، وإذا ما كان زائداً، فمصيبة أيضاً، فلابد حينها من إعادة التفقد. طافا أرجاء العنبر، وبحثا، ونقبا، ثم عادا إلى الباب.

الأول، الثاني، الثالث، الرابع... إنهم يمرون بسرعة، واحداً، واحداً.

كان شوخوف الثامن عشر، وجرى مسرعاً نحو سريره، ثم ارتقى على عجل، وها هو فوق.

حسن. ومن جديد دس قدميه في كم المعطف، ومن فوقه تغطى بالبطانية، ثم بالسترة، استعد للنوم. والآن سوف يحشرون كل من في الشطر الثاني في شطرنا، لكن ما همنا نحن.

عاد قيصر، فناوله شوخوف الكيس.

وعاد أليوشكا. مسكين هذا الأليوشكا، فهو يداري الجميع، ولا يستطيع أن يكسب شيئاً.

- هاك يا أليوشكا- ثم ناوله شوخوف قطعة بسكويت.

فابتسم أليوشكا:

- شكراً! لكن أنت نفسك لا يوجد لديك.

- كُل.

لا يوجد لدينا، لكننا نستطيع أن نكسب دائماً.

ثم أخذ قطعة من السجق في فمه، وراح يعلكها بأسنانه، ويعلكها. إنها تفوح برائحة اللحم. وعصيرها لحمي، وحقيقي، وقد اتجه إلى هناك، إلى بطنه.

و — انتهى السجق.

أما الباقي فقرر شوخوف أن يلتهمه قبيل الاجتماع الصباحي.

ثم تغطى من رأسه بالبطانية الرقيقة، غير المغسولة، ولم يعد يصغي كيف امتلأ الممر بالمعتقلين من الشطر الثاني، وهم ينتظرون التفقد.

أخلد شوخوف للنوم، وهو في غاية الرضى، فلقد حالفه الحظ اليوم كثيراً: لم يزجوا به في الانفرادي، لم يسوقوا مجموعته إلى الضاحية الاشتراكية، وعلى الغداء جنى عصيدة إضافية، رئيس مجموعته سجل لهم نسبة إنتاج في العمل عالية، بنى شوخوف الجدار مرحاً، نجا بجلده في التفتيش، فلم يعثروا لديه على قطعة النصل، وكسب عند المساء من قيصر، واشترى التبغ.

ثم إنه لم يمرض، فلقد تعافى.

مر يوم لم يعكر صفوه شيء، يوم يكاد يكون سعيداً.

مثل هذه الأيام في مدة حكمه من الجرس إلى الجرس، تصل إلى ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وخمسين يوماً.

الأيام الثلاثة الزائدة هي بسبب السنوات الكبيسة.

- ١٩٥٩ -

صدر عن دار الرأي

العنوان	المؤلف
اغتيال الحريري	يورغن كاين كولبل
اكتشاف الإسلام	روجيه دوباسكييه
أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط	برنارد لويس
تاريخ سورية الحضاري القديم	د. أحمد داوود
تجربة الإدارة المحلية	د. محمد توفيق الأسد
التحقيق الكامل (هجمات ٩/١١)	تقرير لجنة الكونغرس
حياتي (مذكرات كلنتون)	بيل كلنتون
الدولة والمجتمع المدني	شاهر أحمد نصر
رجل من الداخل (رواية)	غراهام غرين
سيناريو وحوار (قصص)	عدنان حبال
صانعو الإرهاب	يحيى أحمد عيسى
الإدارة في سورية	د. محمد توفيق الأسد
القديس فرانسيس (رواية)	نيكولاس كازانتزاكي
ما يدعو للهذيان (قصص)	فرحان مطر
المخدوعة (رواية)	توماس مان
مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ب. ردفورد
من نحن (التحديات التي تواجه الهوية الاميركية)	صموئيل هنتنغتون
هل تحتاج أميركا لسياسة خارجية في القرن ٢١	هنري كيسنجر
العالم مستوٍ	توماس فريدمان
المال ضد الشعوب	إيريك توسان
بالسيف والصليب	ميخائيل زابوروف

يوم في حياة إيفان

يعتبر الكاتب الروسي الكبير ألكسندر سولجينيتسين من أبـــرز الأدبـــاء المنشقين، وأغزرهم نتاجاً، وأوسعهم شهرة.

وعلى الرغم من كثرة أعماله وتنوعها، فإنها تتمحور كلها حول وصـــف "الحياة" في المعتقلات، ومعسكرات العمل الستالينية، وهي حياة ســداها الإذلال والإهانة، ولحمتها العمل الشاق المنهك. وحيث يتحول العمـــل، الذي كان وراء تحول القرد إلى إنسان، إلى نوع من السخرة والعبوديـــة وتحقير الإنسان، وإعادته إلى مرتبة القرود.

وفي رواية "يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش" يرسم الكاتب صورة حية لهذه المآسي المخزية، التي يندى لها جبين الإنسانية خجـــلاً، والـــتي تترك لدى القراء انطباعاً عميقاً في الذاكرة، ينحفر فيها إلى الأبد.

